الورقة العاشرة

أنـا عَـنـكِ مَـا أخـبَـرتـُهُمْ.. لـكـنـَّهُـمْ
لَـمَـحُـوكِ تَـغـتـَسِـلِـيْـنَ فـي أحـداقـي

أنـا عَـنـكِ مَـا كَـلـَّمْـتـُهُـمْ.. لـكـنـَّهُـمْ
قـَرَأوكِ فـي حِـبْـري وفـي أوراقـي

لِـلـحُـبِّ رائِـحَـةٌ... ولَـيسَ بِـوِسْـعِـهـا
أن لا تَـفُـوْحَ مَـزَارِعُ الـدَرَّاق

.

نـزار قبّاني
كـتـاب الحُـبّ

الحُبُّ الأوَّلُ لا يَموتُ من نفسِهِ..
ولكن يأتي الحُبُّ الحَقيقيُّ بَعدَه ليَدفِنَـهُ حيًّا.

محمود درويش

الوَجبَةُ الطَّرَبيَّةُ المنتظَرَة لمْ تخرُجْ بَعدُ منَ المَطبَخ.

والفنّان مايز البيَّاع لا زالَ متواريًا وَرَاءَ كواليسِ الشَّوْقِ ولَهفةِ مُستمعيه. كانَ الجَميعُ يعشَقُ أغانيَه التي ملأتِ الدُّنيا وشَغلَتِ النّاس رَدَحًا منَ العُمر. ولحين إطلالةِ أميرِ

الحَفلةِ كانَ النّاسُ يتناولونَ مُقبِّلاتٍ من الموسيقى.. عرَبيَّةً كانت أو غَرْبيَّة.. تَتَهادَى على إيقاعِ نوتاتِها الأجسَادُ وتَسْكر. والطَّرَبُ الحَقِيقيُّ ينفذُ إلى الأعماقِ بعدَ أن يثمَلَ الجسَدُ أوَّلاً بقَطرَاتٍ من رُحاقِهِ الصَّافي.

قامَتِ الشَّبيبَةُ إلى حَلبَةِ الرَّقص في ذلِكَ المَربَعِ اللَّيليّ White fun club في جونيه. وطاولةٌ بكاملِها مَقصورَةٌ على رياضيِّي (مَرفأ الضبْبَيِّه)، وقد راحَ نصفُهُم يُثمِلونَ الأجساد، والأجسادُ كؤُوسٌ تتَقارَعُ، بالتَّهريجاتِ الحُرَّةِ بَعيدًا عن التَّوقيعاتِ الرِّيَاضيَّةِ المُنتظمَةِ المُرهِقة. كانت إيميه تراقصُ غَيث. ولكلٍّ أسلوبُهُ في التَّعبير بلغَتِهِ وبيانِهِ الذي يناسِبُ شكلَهُ ومزاجَه. خَطوَة.. حَرَكة واحدَة أو حَرَكَتان مُبتَكرَتَان تفيان بالغَرَض. ورَقَصاتُ الكَيْفِ غيرُ رَقصِ الصَّالونات! إيميه موهوبَة، وتمزُجُ في خَطَواتِها الجيرك بالرُّوك آند روك، وهي فيَّاضةٌ متدفِّقَةٌ بالجاذبيَّة، وفاتِنَةٌ في دَلَعَاتِ كتِفَيْها المُغويَة. وغَيث هادئ ولكنَّه ظريفٌ في ترَنُّحاتِه. وعلى مَسَافةٍ منهُما كانَ ابنُ الوزير يُراقِصُ فتاتَه وعَيناهُ صَقرانِ يُحوِّمانَ حَولَ إيميه جَبُّور. تلاقَتِ العُيونُ الأربَعَة وتصادَمَ الوَجهان: هي وهو! غمَزَها مُتَحَرِّيًا جَدِّيَّتَها في دَعوَتِهِ له بنَظرَتِها الأولى. فإذا هي ترُدُّ بابتِسامةٍ.. وابتِسامَة "مَلغومَة"! ثمَّ غمَزَها ثانيةً وابتسَمَت له أيضًا، وثالثةً وابتسَمَتْ له، وهي تَفورُ أمامَ غَيث كالفَرَاشِ حَولَ الزَّهرَة. قد تكون هذه الابتساماتُ الثّلاثُ فَتحًا عَظيمًا بالنِّسبَةِ إلى ابنِ الوزير! وهو الزَّاحفُ منذ شُهورٍ طائِفًا في جزائِرِها الخرافيَّةِ باحثًا عن الكنز. وأدارَ مُهندسُ الموسيقى إيقاعًا هادئًا Slow وأُسْدِلَتْ سِتارَةُ الأنوار العالية.. ما خلا بعض الأضواءِ الملوَّنةِ والخافتة جدًّا.. إفساحًا في المَجال لسِحرِ الكيمياءِ الرُّومنسيَّةِ تذيبُ الفواصِلَ والحواجِزَ بينَ الثُنائيَّات.. كلِماتٍ كانت أو همَساتٍ أو قبُلات. وتهادَتْ أغنيَةُ جو داسّان الشَّهيرَة (Le Chateau de sable) كهَوَاءٍ عَليلٍ في فَضاءِ الشَّوْق، كدَفَقاتِ لذَّةٍ تغزو شَواطئَ الوَجُوهِ والقلوب. قال غَيث لإيميه مازحًا:

– في الموسيقى السَّريعَة رَقصتِ الرُّوك آند رول.. أتُراكِ ترقُصين التّانغو على الإيقاعِ الهادئ؟

– مَعَكَ.. أستطيعُ أن أتقِنَ كلَّ أنواعِ الرَّقص.

قالتها وهي تُزيحُ خُصلَ شَعرِها الرَّاقصِ هو الآخر في حَلبَةِ وَجْهِها الأشقر العَرْقان. سألَتهُ وصَوتُها يرتجِفُ منَ التّعَب:

– هل يوجَد معكَ كلينكس؟

– بلى.

– أنا سأسحَبُها من جَيبِكِ. هنا أو هنا؟

– هنا. أجابَها.

ثمَّ مَدَّتْ يدَها إلى جَيْبِهِ وراحَتْ تعبَثُ برؤوسِ أناملِها في قَعرِ جَيبِ سِروالِه بطريقةٍ مُثيرَة، وهي تنظرُ في عَينَيهِ نظراتٍ تنبضُ بالتَشَهّي. سَألَها:

– ما بكِ؟ هل أنتِ على ما يُرام؟

– أنا في أحسَنِ حالاتي.

ثمَّ أخرَجَتِ الكلينيكس ووَضَعتْها في يَدِهِ.. وقالت له وهي تُرسِلُ إلى بَريدِ عَينَيْهِ دَعوَةً إلى العَبَث:

– إمسَحْ لي وَجهي وجَبيني وعُنُقِي.

فقرَّبَ شَفتَيهِ من أذُنِها وهمَسَ:

– يا شَقيَّة! تستَحِقِّينَ "شَمْطَةَ" أذُن.

وَعَضَّ على شَحْمَةِ أذُنِها اليُسْرَى بلُطفٍ وداعَبَها بلِسَانِه.. ثمَّ مسَحَ بالكلينكس أسفلَ عُنُقِها.

فقالت له في أداءٍ تَمثيليٍّ بارع وهي مُغمَضَةُ العَيْنَين:

– آي.. أنتَ تؤلمُني كثيرًا! ترَفَّقْ بي أرجوك!

فقالَ لها، وهو لا يَدري بأنَّه يَتفوَّهُ بنبُوْءَةٍ صادقة.. ولَعنَةٍ حَقيقيَّة سوفَ تَحُلُّ على المِسكينَةِ إيميه ذاتَ يوم:

– هذه لا شَيْء.. سوفَ أُولِمُكِ كثيرًا فيما بَعد.. والأيَّامُ آتية.

ومَرَّت حوالي ثلث ساعةٍ على الأنغامِ الأثيريَّةِ السَّاحِرَة.. ثمَّ توقّفَتْ.. فعادَ الثُنائيَّاتُ كلاًّ إلى مكانِه. ولا زالَ الجَميعُ ينتظرون صاحبَ الصَّوتِ العاطفيّ الرَّخيم مايز البيَّاع.. وأطلَّ مايز البيَّاع أخيرًا.. كأنَّهُ نغمَةٌ بَينَ نغماتِ إحدى أغانيهِ العَذبَة! بحُلَّةٍ رومنسيَّةٍ أنيقةٍ وبابيّون بنفسجيِّ اللّون وخاتمٍ في خِنصَرِهِ يُرَى بوضوحٍ وهو يَحمِلُ الميكرو أثناءَ غنائِه. حَيَّى السَّاهرين عندَ نهايةِ أغنِيَتِه الأولى، وصفَّقَ لهُ الجميع. ثمَّ شرَعَ بعدَها يُطربُ الحُضورَ بفنِّهِ المُمَيَّز. غنَّى ثلاثَ أغنياتٍ من ألبومِه الأخير، ولكنَّ التَّجاوبَ المُذهل.. بلِ الانتِفاضَة! عندَما أنشَدَ: عَسَل.. عَسَل.. يا سَلام عَالحُبّ! فقامَ الشَّبَابُ والصَّبايا بحَمَاسٍ إلى الرَّقص على أغنيةِ (عَسَل بشَهدو عَسَل). لوَّحَتْ إيميه بذراعَيها عاليًا مُنتَشيَةً، وهي تُرَدِّدُ كلِماتِ الأغنيَة معَ مايز البيَّاع. وجذبَتْ غَيث من يَدِه فقامَ معها. ثمَّ فجأةً! شعرَ غَيث بشَبَحٍ يَترنَّحُ ويَقتربُ منهُما. فنظرَ إليهِ.. فإذا هو يتمايلُ حاملاً كأسَه ويرسِلُ نظراتٍ وابتسامات.. ثمَّ كلماتٍ لم يفهَمْها لا هو ولا إيميه. ولكنَّ المَكتوبَ يُقرَأُ من عنوانِهِ. فقرَّبَ غَيث فمَهُ من إيميه وقال لها بصَوتٍ عالٍ لتَسمَع:

– هذا سَكران! إنَّه يعبَثُ معَكِ.

– لا بالعكس.. إنَّه لطيف! قالت بغُنج.

– هل تعرفينَه؟

– ألا تعرفُ فِراس ابنَ الوَزير؟! سألَتْه في شِبهِ تَحَدٍّ.

– إبن الوَزير!! قالَ مُستَغربًا.

ثمَّ قَرَّبَتْ فمَها كثيرًا من أذنِهِ وقالت متباهيةً:

– وهو أحدُ الواقفينَ في الطَّابور الذي أخبَرْتُكَ عنه من زمان.

ثمَّ نَظرَتْ في ماءِ عَيْنَيْه تراقِبُ موَيجاتِ كلِماتِها فيهِما. قالَ لها:

– لقد شَربْتِ كثيرًا يا إيميه...

ثمَّ قطَعَ كلامَه صَوْتُ ابنِ الوَزير على بُعدِ خطواتٍ يُوَجِّهُ الكلامَ إلى إيميه، وهي الشَّقراءُ ذاتُ العَيْنَيْنِ العَسَليَّتَين:

– دَخيل العَسَل والصَّوت العَسَل أنا.. والشَّعْر العَسَل.. وعْيون العَسَل الحلوين!

فخَرَجَ غَيث عن طورِهِ! وانهالَ على فِرَاس بلكماتِهِ الهِستيريَّةِ ورَماهُ أرضًا.. وارتمى عليه يَضربُه. صرَخَت إيميه. واندَفعَ الشّبابُ يردَعونَ غَيث عن جُنونِه.. ثمَّ تألّبَ الجَميع عليهِما. أوقفَ مايز البَيَّاع موسيقاه، وقالَ رافعًا صَوتَه على الميكرو:

– يبدو هناكَ مَشكَل.. أرجو من شَبابِ الأمن أن يَحضَروا بسُرعة.

فأمسَكَ غَيث إيميه بيَدِها واعتذرَ من رُفَقائِهِ وَخرَجا بسُرعَة. ودَفعَ رجالُ الأمن بفِراس خارجًا، فخرَجَ أصدقاؤُهُ أيضًا معه وهدَّأوه، فيما راحَ يُعالِجُ نزيفَ فمِهِ بالكلينكس قربَ سَيَّارتِه في الباركينغ. ثمَّ انتبَهَ لطَيفِ فتاةٍ هيفاءَ سَمراء.. دَنَتْ منهُ بسُرعةٍ.. ووَضعَتْ وَرَقةً في يَدِهِ وهمَسَتْ في أذُنِهِ:

– أنا سَابين سماحَة.. وهذا رَقمي وعُنواني إذا كنتَ تريدُ الانتقام.

نَظرَ فِراس إليها لثوانٍ.. ثمَّ مَدَّ يدَه وأخذَ الوَرَقة منها ووَضَعَها في جَيْبِه. ولكنّه لم يتَّصلْ بسَابين إلاّ بعدَ أيَّام، مُستَوضِحًا عن طبيعةِ المُساعدَة التي تَعرضُها عليه.

*****

وأمّا حِكايةُ سابين سماحَه معَ غيث الرَّاسي فلَها تاريخٌ على حَدَةٍ هي الأخرَى. وقدِ استَشْعَرَتْها إيميه بحَدْسِ المَرأةِ الذي لا يُخطِئ.. واستنكَرَها منها غَيث بالكامل. ومُختصَرُ مُفيدِ الحِكايَة أنَّ سابين، وهي ذاتُ عَقليَّةٍ وأسلوبٍ مُنفتِح، تُحِبُّ غَيث وتستَخدِمُ جسَدَها حتى ممارسَةِ الجنس، وبطريقةٍ ماكرَة، للايقاعِ بهِ عَريسًا عَتيدًا. وغَيث لم يَعِنَّ لهُ الزَّواجُ من غيرِ إيميه. ولُعبَةُ سابين فيها الكثيرُ منَ المُغامرَةِ والكثيرُ

منَ الخَسَائِر.. مع احتِماليَّةٍ وافرَةٍ أنَّ ناتِجَ الاستِثمارِ في غَيث مَعدومٌ. رهانٌ وخُطورَة بامتياز! ولكنَّهُ الحُبّ.. وَسَابين هي الأخرى إحدى وَيلاتِه. سابين تثِقُ بجاذبيَّةِ مَظهرِها، وتتقاطعُ معَ غَيث عندَ المِزَاجِ الواحِدِ والهوايَةِ الواحِدة. بيدَ أنَّ غيث تَوليفٌ منَ الطُّمُوحاتِ الجَّامِحَة. الكرَةُ الطّائِرَةُ تسلية لشبابِهِ البَرِمِ بتَعثُّرَاتِ الحَيَاة، والجنسُ يَقصدُ إليهِ ويَقطفُهُ من غصُونِهِ طازَجًا يانِعًا. وسَابين كانت تعطي غيث تارَةً "نِصفَ" الجنس.. وطورًا "ثلاثةَ أرباعِهِ"، وتُحاولُ أن تترُكَه في حالةِ ذهولٍ إزاءَ سِحرَ لمَسَاتِها، كما ظنَّتْ، وإبداعاتِ شَفَتَيها.. وَتَلصُّصَاتٍ إليهِ من عُيُونِ جَسَدِها اللاَّهِبِ بينَ الحينِ والآخر. وكلُّ تَضْحِياتِها هذِه كَرمى لعَيْنَي غَيث.. ورُجُولةِ غَيث.. وَغَرامِ غَيث الموجِع! وأمَّا الشَابّ عبدو إن هو إلاَّ مُناوَرَةٌ أو قِناع تُحاولُهُ معَ فارسِ أحلامِها غَيث من مثل (مبدأ العَصَا والجَزرَة)، أي رَمي القليل منَ الجنس معَ عَبَثٍ بمِيَاهِ الغَيْرَةِ بواسِطةِ قَصبَةِ عبدو. وأمّا بالنِّسبَةِ إلى غيث الرَّاسي فهو بإمكانِهِ أن يأخذَ منها ما يرُيد.. بيدَ أنَّ طريقتَها معهُ منَحَتْهُ المُتعةَ الأكبَر! فهي إيروتيكيَّة خبيثة وهذا يَستَهويهِ.. حتى بدأ يَجدُ كاملَ لذَّتِهِ بالتَّشَهِّي الفُضُوحِيّ.. وَراحَت هذِه المُيُولُ تَتطوَّرُ عندَه معَ الزَّمَن إلى نزْعَةٍ تلَصُّصيَّةٍ لَجُوجَة. هناكَ عقَدٌ نفسيَّةٌ لا يَحمِلُها الإنسانُ معَهُ من طفولتِهِ المَحرومَةِ المُضطربَة، ولكنَّها اكتِشَافٌ اندِفاعيٌّ واعٍ أحيانًا يحدُثُ صدفة، أو هُرُوبٌ من شَبَعٍ ما وتُخمَةٍ إلى جُوعٍ طريفٍ مُبتَكَر. وكثيرٌ من حالاتِ المِثليَّة كانت نتيجَةَ اكتفاءٍ من العلاقةِ الطَّبيعيَّة. وسابين كانت عاملاً مُساعِدًا على وُلوجِ المُتَعِ غيرِ السَويَّةِ هذه عندَ غَيث. لقد دَعَتهُ سابين ذاتَ يَوم إلى صُحبَتِها في شاليه لصَديقتِها نَرمين على ذلكَ الشَّاطئِ الصَّخريِّ العَريض.. حيثُ تُشَكِّلُ الصُّخورُ لوحاتٍ عاموديَّةً وأفقيَّةً جَميلة. قالت لغَيث:

– سوفَ نذهبُ نحن قبلَ الظّهر.. وستوافينا إلى هناك صَدِيقتي نَرمين معَ صَاحبِها عندَ الظَّهيرَة.

وكانتْ هذه كِذبةً خَلاّقة! والغاية أن تبقى الوَضعِيَّةُ حَذِرَةً فلا يَنفَردانِ لكمائِنِ النَّزْوَةِ من جِهَةٍ، وتقدِرُ أن تُمَرِّرَ رسائلَ فُضُوحيَّةً مُثيرَة من جهَةٍ أخرى. ولكنَّ سابين تجهلُ أنَّ هذا هو مُرادُ غَيث بالضَّبط! ثمَّ أمضَيَا ساعاتِ ما قبلَ الظُّهر بينَ السِّبَاحَةِ والاستِلقاءِ

على الصُّخُورِ المَلسَاء والثَّرثَرَةِ وشُرْبِ عبواتِ المشروب الغازيّ. وحوالي السَّاعةِ الواحدة ظُهرًا صَعِدا وسلَكا الدَّرْبَ التُّرابيَّةَ إلى شاليه صَديقتِها نَرمين ذاتِ سَقفِ إتِرنيت مَدهونٍ باللَّونِ الأحمَر، والغائصَة بينَ الأعشابِ العاليةِ اليابسة والقصَبِ الأصفر. جلسَ غيث تحتَ النَّخيلِ المُظلِّل تيرَّاس الشَّاليه، وَمَدَّ سَاقَيْهِ العاريَتَيْن على الدّرابزون الخَشَبيّ، وشرَعَتْ هي تحَضِّرُ الطَّعام. سألَها:

– أين صَدِيقتُكِ؟ لقد تأخَّرَت.

– لا أدري يجبُ أن يصلا.. الغائبُ عُذرُه معه.

ثمَّ قالت له في شبهِ سؤال:

– أريدُ أن آخذَ راحتي بالتَّصَرُّفِ هنا.. هل تَأذَنُ لي؟

– هذا المكانُ ليسَ لي.. إنَّه مُلكٌ لكِ الآن وأنا ضَيفٌ.

ودخلَتْ فأخذَتْ دوشًا ثمَّ ارتدَتْ غِلالةً قصيرةً شَفَّافة ذات لون فوشيا زهريٍّ فاتح، وبلا لباسٍ داخِليّ.. فبَدَتْ كأنَّها عاريَة! فكانَ انعِكاس بشَرَتِها السَّمرَاء على لون الفوشيا الفاتح كونتراستًا جذَّابًا. فسبَحت عينا غيث ما وَرَاءِ الغِلالة.. في بَحرٍ منَ الغُموضِ والأحاجي. غريبٌ أمْرُ الشَّهْوَة! لم يَقُلْ عُرْيُها شَيئًا له على الشَّاطِئ.. وأمَّا الغِلالةُ الشَفَّافةُ فهيَ التَّعويذةُ التي استَحْضَرَتِ التَّضَاريسَ المُلوَّنةَ من بلادِ دانكسيا العَجَائبيَّة. وراقَ له ما فَعَلتْهُ كثيرًا. سألَها وهي تطفُرُ جيئةً وذَهابًا لتُحَضِّرَ مائدةً لعاشِقَين:

– أنتِ قويَّةٌ وجَريئَة.. لا تخافينَ البَتَّة.

– وممَّ الخَوف غَيث؟

– مِنِّي أنا. قالَها والشَّهْوَةُ وَميضٌ ماكرٌ في عَيْنَيه.

– لماذا أخافُ منكَ؟ وهل أنتَ تأكلُ بَشَرًا؟ سألت باستفزاز.

فنَهَضَ من مكانِهِ وأخذَها بَينَ ذراعيهِ بعُنفٍ رُجُوليٍّ رومنسيّ، وقال:

– بل أنا آكلُ حَلوًى، وأحِبُّ الحَلوى كثِيرًا.

وكانتْ شَهوَةُ عَينَيهِ تنفُذُ إلى أعماقِ أنوثَتِها الهائمَة به.

فأجَابتْهُ غيرَ مُرْتبِكَة:

– كما تُريد.. بإمكاني أن أصنعَ الآنَ قالبَ حَلوًى طيِّبًا على ذَوقِك.

فأطبَقَ شَفَتَيهِ على شَفَتَيها في قبلةٍ مَحمومةٍ شَبِقَة.

وانتهَتِ القبلةُ أخيرًا. فدَفَعَتهُ بلُطفٍ عنها وعادَت أدراجَها إلى الدَّاخل. وثبَ وراءَها وأمسكَها بيَدِها ثانيةً وضَمَّها إلى صدرِهِ. قالت له بهُدُوء:

– لا تنسَ غَيث.. قد تصلُ نَرمين وصاحبُها الآن!

– أنتِ كاذبَة سابين.. لن يأتيَ أحَدٌ. وأنا أحِبُّ ما تفعلين.

– وماذا أفعَلُ يا غَيث؟ أجابت بتجاهُلِ العارف. لم يُجبْها عن سؤالِها، وقال:

– أنتِ امرأةٌ استثنائيَّة.. وأنا لسانُ حالي كما قال سَعيد عقل.

– ماذا قالَ سَعيد بلا عَقل هذا؟ لم أعْهَدْكَ مُستَشعِرًا.

– لا تقرُبي منِّي وَظَلِّي.. فِكرَةً لغَدِي جَميلة.

– ومن هي فكرتُكَ الجَميلة أيُّها المُستَشعِرُ العَظيم؟

– أنتِ. أنتِ هكذا أطيَب. وأنا أختلِفُ عن الرِّجالِ سواي.

قالَ هذا وتركَها وأدارَ ظَهْرَه.

– لم افهَمْ وَجهَ الاختلاف! قالت في شبهِ سؤال.

– أنا أكثرُ تماسُكًا وسيطرَة على نفسي منكِ على نفسِك. رؤيةُ جَسدِكِ الجَميل هكذا تحتَ الغلالةِ الشَفَّافة، بالنِّسبَةِ إليّ، هو الذُّرْوَة.

– لم افهَمْ بَعد وَجهَ الاختلافِ بَينَك وبين سِواك.

أشعَلَ سيكارةً وَمَجَّ مَجَّةً وقال:

– الرِّجالُ سوايَ يطلبون الجنس.. وأمّا أنا فأعشَقُ عِطرَه. سوايَ يُريدُ المُلامسَة وأنا أريدُ أن أتأمَّلَ اللَّوحَةَ عن بُعد. سوايَ يريدُ عِناقَ ورَقصَ الجَسَدَين وأنا أعشَقُ أصداءَ موسيقى الغَرَام البَعِيدَة.

– ذَكَّرْتَني بجَميل بُثَينَة أيّامَ البكالوريا. قالت مازحةً.

– لا.. لسْتُ عُذْريًّا يا سَابين. ولكنِّي مُختلف.

ثمَّ أمضَيا ما تبَقَّى منَ الوَقت تحتَ أوراقِ النَّخيلِ المُظلِّلَة يشربان القهوَةَ والجِعَة.. يَتَمازَحان ويَتَحادَثان في أمُورٍ شَتَّى. غيث نزلَ إلى الماء وسبَحَ لبَعض الوقت. ثمَّ غادرا الشَّاليه حوالي السَّاعةِ الخامسَةِ بعدَ الظّهر. والذي دارَ بينَهما في ذلِكَ اليَوم إن هو إلاّ عيِّنَةٌ بسيطة من مُحاولاتٍ فاشلةٍ لسَابين سَماحَه لاحتواءِ شَخصيَّةٍ كشَخصيَّةِ غَيث المارِدَةِ الطّامحَة إلى أبعَد بكثير من المَرْأةِ والجنس. إلاَّ انَّها تُحِبُّه! والحُبُّ القويُّ لا يَرعَوي ولا يَيأس.

*****

لقد خرَجَتْ سابين وراءَ فراس ابنِ الوزير المُدَمَّى، جَريحَ الجَسَدِ والنَّفسِ معًا، في سَهرَةِ مايز البيَّاع الصَّاخبَة، لأنَّها وَجَدتْ في كرامَةِ عاطفتِهِ المُهَانة عَونًا، بل سِلاحًا فعَّالاً في مَعركَتِها، وأعطتهُ رقمَها وَعُنوانَها وهي لا تملكُ اقتِراحًا. ليسَ لديها خُطَّة.. ولكنَّه اندِفاعُ الغَيْرَةِ وحِراكُ الحُبِّ الخائب. ولأيّامٍ راحَت سابين تفكِّرُ في مَشروعٍ قبلَ أن يَتَّصِلَ بها فِراس. لقد تقاطعَتْ مَصلَحتُها مع مصلحَتِهِ في قَدَرٍ عاثِرٍ تاعِس، والتَّعاونُ عندَ هذه النُّقطَة قد يُثمرُ، مَن يَدري؟ عن نتيجَةٍ تخدمُ غايةَ الطَّرَفين. ولم تُنَزِّلْ لها رَبَّةُ المَكرِ وَحْيًا مُقنِعًا، حتى اتَّصلَ بها فِراس بعدَ عشَرَةِ أيَّام هاتِفيًّا:

– أنا فِراس سابين.. لقد عَرَضْتِ عليَّ المُساعدَة في سَهرَةِ مايز البيّاع في الـــ White fun club حَتمًا لم تَنسَي؟

– أهلاً سَيِّد فراس. قالت مُرَحِّبةً به.

– هل أفهَمُ من مُبادَرَتِكِ أنَّ لدَينا هدَفًا مُشتركًا؟ سألَها واغلاً في صلبِ الموضوع مباشرَةً.

– بلى.. وعدوًّا مشتركًا أيضًا. أجابتْ هي.

– أنا لدَيَّ عَدُوّ.. وأمَّا أنتِ فعَدُوَّة.. أليسَ كذلكَ سابين؟ سألَها وقد فهِمَ جيِّدًا خلفيَّةَ مُبادَرَتِها الجَريئَة.

– صَحيح.. وأنتَ قُلت.

– ماذا تقتَرِحين؟ سألَها أيضًا. وأجابَته مُرتَبكة:

– في الحَقيقةِ حتى الآن لا خُطَّة. ولكنَّ الكلامَ على الهاتفِ لا يُفيد. يَجبُ أن نلتقي.

وهكذا اتَّفقَت سابين مع ابنِ الوزير فراس على لقاءٍ فرَضَهُ تقاطُعُ المَسَارات وهندَسَتْهُ عَبَثيَّةُ التَّناقضاتِ في صراعٍ خائبٍ مُستحيل. سابين تجاهدُ للحصول على حَبيبِها وأيضًا فراس يحاربُ لكي يفوزَ بإيميه.. ولكنَّ الشَّيءَ الأكيدَ والحَتميّ الذي يَجهلُه الجَميعُ أنَّهم جميعًا يُجاهدون.. وجَميعًا يُحاربون.. وجَميعَهم يطلبونَ السَّعادَة في الحُبّ.. وفي نِهايةِ المَطاف تبقى العَثَرَاتُ في طريقِ الحُبِّ هي هيَ! أكانت منَ البشَر أم منَ القدَر. هذا والحُبُّ ليسَ البوَّابةَ الوَحيدَةَ إلى السَّعادة! وليستْ جَنائنُ الحُبِّ السَّعيدِ كلُّها وَردًا وياسَمينًا. فالحُبُّ تَوْليفَةٌ غامضَةٌ منَ البَوْحِ والانسِجامِ والخُصُوماتِ والنِّكايات والشَّوْقِ والدُّمُوعِ والغَيْرَةِ والانفِصَالات والمُصالَحات. سابين خائبَة، وفراس فاشِل.. وهكذا أيضًا إيميه وَغَيث سوفَ يَعيَى حبُّهُما وَينهارُ إزاءَ التَّحَدِّياتِ المتعاقبَة.. وسوفَ يُفضِي إلى المأساة! والبناءُ لا يقومُ على عمودٍ واحدٍ بل على عَمودَين اثنَينِ متآزرَين. وفي حَلَقةِ هذا الرُّباعيِّ المُتنافِس، الذي يُشبهُ تمامًا الكروموزوماتِ المُتَعاركة في الخَليَّةِ الحَيَّةِ الواحِدَة، الرّابحُ لا تدومُ فرحَتُه، والخاسرُ لا يَدومُ حُزْنُه. والأوقاتُ السَّعيدَةُ في الحَيَاةِ أخطاءُ تصادُفاتٍ عَبَثيَّةٍ مارقة.. الألمُ هو السِّمَةُ الأساسيَّة للوجود لأنَّهُ كتلةُ تَنَاحُرَات.. والسَّعادَةُ هي القُدْرَةُ على تلوينِ التَّجَاربِ والآلام بالتَّفَاؤلِ واستِحضَارِ الحُلُم.

وبكلِمَة.. إنَّ الحُبَّ لا يتعايَشُ معَ المكر، ولا يُساكِنُ الخَديعَة.. لأنَّه رُوْحٌ مقدَّسَة. وعندَما يتحالفُ جُمْهورُ الحُبِّ معَ عَدُوِّ الحُبّ ينقلبُ الحُبُّ عدوًّا لدُودًا لجُمْهورِه.

وهكذا تصافَحَ عنفوانُ الثَّأرِ عندَ ابنِ الوَزير معَ غَيْرَةِ سَابين المُرَّة على تصفيَةِ حُبِّ غَيث وإيميه بأيِّ طريقة.. ومهما كانت شرِّيرةً مدَمِّرَة! شرطَ أن يَكونَ التَّنفيذُ ماكِرًا لدرَجةٍ يَبدو كأنَّهُ من صُنعِ المَقدور ولا دَخلَ ليَدِ الإنسانِ فيه. ولكنَّ المَقدُورَ سوفَ يُساعدُهما.. وفي هذه المَرحَلةِ بالذّات.. بحَيثُ يُقصِي غَيث فُصُولاً عن توالي الأحداثِ والمُستَجدَّات لفترَةٍ.. مِمّا أوجَبَ تأجيلَ المَشروعِ الشِرِّيرِ لحِينِ ظهورِ غَيث ثانيةً على خشبَةِ المَسرَحِ الدّرامِيِّ العَنيف.. مع حَبيبتِهِ الولَوع إيميه، ولاحِقًا غريمَتِه.. وأخيرًا شَريكتِهِ في بطولةِ مأساةِ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥.

*****

الورقة الحادية عشرة

منذ كنتُ طفلاً كنتُ أكرَهُ الوداع؛
فكلمة.. وَدَاعًا.. بالنّسبَةِ إليَّ
شَكلٌ مُصَغّر من أشكالِ المَوْت.

فيديريكو غارسيا لوركا

في هذِه الحَيَاة ستتعلَّم كلَّ شَيْءٍ من نفسِكَ..
إلاّ القَسْوَة..
سيَقومُ إنسانٌ آخر بتعليمِكَ إيَّاها.

آل باتشينو

"هذه هي قطعَةُ الأرض.. من هنا حتى أطرافِ البَلدَة".

كانت هذه كلماتُ الشَابّ غَيث الرّاسي ذي الجَمَحاتِ غيرِ السَويَّةِ نَحوَ المُستَحيل، وهو يوجِّهُ الكلامَ إلى شَارٍ مُغفَّل عائدٍ منَ الخَليجِ العرَبيّ.. ويَبحَثُ عن عقار في بقعةٍ هادئَةٍ في السُّفوحِ القَريبَةِ منَ العاصِمَة، ليَبنِيَ عليه منزلاً كبيرًا وَيَستقِرّ في الوَطَن. غَيث

شابٌّ في بَحرِ عِشرينيَّاتِه.. وطمُوحُه المادِّيّ أولويَّةُ أجنداتِه! الأرضُ السَّائِبَة وجُدرانُ بيتِها الخَرِب قربَ منزِلِهم في جونيه.. كانت سِفرًا مُلهِمًا.. وصَوتًا نبُوئيًّا.. لمُغامَرَة لا زالت أسيرَةَ حُجُبِ المُستَقبَلات.. تمامًا كالصَّوتِ الغَيبيِّ الذي سمِعَه النّبي إبراهيم يقولُ له: "أترُكْ أهلَكَ وَعَشيرَتَكَ، واذهَبْ إلى الأرضِ التي أريك"[1]. كانَ غَيث يبحثُ عن رافعَةٍ سِحريَّة.. عن ماردٍ من قمقم يَشيلُ بهِ إلى فوق. بيدَ أنَّ عِصاميَّتَهُ العَنيدَة قالت له أن يُصنِّعَ هذه الرَّافعَةَ من مَعدِنِ خَيَالاتِه المُضْطربَة. فالنُّسُور، عندَ جُبران خليل جُبران، لا ترتقي السُّلَّمَ دَرَجةً درَجَة.. وإنَّما تحلِّق. الثَّرْوَةُ كابوسُ غَيث وتَعويذةُ شُؤمِه! والعقاراتُ المُهمَلَة والمَنسيَّة من مالكيها أو وُكلائِها، وربَّما لا أوراقَ ثبُوتيَّة لها ولا مَرجع عقاريًّا، باتَت شُغلَه الشَّاغِل. وفي تلكَ المُغامرَة بالذّات.. كانَ غيث بحاجَة لشَريك.. وكانَ هذا الشَّريكُ صديقَه الذي أنهى لتوِّهِ دراسَةَ الحُقوق، وهو يتدَرَّجُ في مكتبِ مُحاماةٍ في العاصمَة. فباتَ والحالة هذه المُحامي مالِكُ المَكتب مَصدرًا استشاريًّا لهَوامشَ وتفصيلاتٍ وتداعياتٍ رافدَةٍ لسَيلِ هذه المُغامرَةِ الجَريئَة. المالكُ الأصليُّ لقطعةِ الأرضِ الفتُوحيَّةِ مُتوَفٍّ.. والوَكيلُ الأوّلُ مُتوفٍّ أيضًا! وما يَشكلُها بالدَّائِرَةِ العقاريَّة أنَّ الوَكيلَ الثّاني مُغتربٌ لبنانيّ. وقِوامُ الخَديعَةِ استِنساَخٌ لهذا الوَكيلِ الثّاني والقبض منه على مَرحلَتَين: نصف المَليون كرَعبون، ثمَّ النِّصف الثّاني في دُفعَتَين. غَيث شابٌّ عِشرينيّ والشّاري في حوالي الأربَعين، ويُريدُ هذا المُهاجرُ اللّبنانيُّ السيِّئُ الحَظّ أن يَشتريَ أوّلاً بالرَّعبون، ثمَّ يسافر لتصفيَةِ بعض أشغالِه قبلَ العَودَةِ النِّهائيَّةِ إلى الوَطَن، فسارَعَ ودَفعَ رَعبونَه نصفَ مليون دولار لغَيث.. وانطلَتِ الحيلةُ عليه! ذلكَ لأنَّ غيث هو رائِدُ ونَبيُّ هذه الشَّعوَذَةِ العِقاريَّةِ الجَهنَّميَّة، والنَصَّابُ المُحتال مُستكشفٌ مُجاهد عن كنوزِ الأفكارِ البكر والطَّرائِقِ الجَديدَة في الشَّكلِ والمَضمون، والنَّجاحُ حَليفٌ نَصيرٌ لا يخونُ للجِدَّةِ والحَداثة. رأى هذا الشَّاري قِطعَةَ الأرضَ وأعجَبَته. وظنَّها تساوي أكثرَ بكثير من مليون دولار، وربَّما ظنونُه في مَحلِّها! ولكنَّ لباقةَ غَيث وصديقِهِ المُحامي المتدَرِّج، واستعانتَهُما بخالِ صديقِهِ وهو رجُلٌ خمسينِيٌّ، والذي توَّجَ المؤامَرَةَ بحُضورِهِ الوَقور بشَاربٍ وشَعرٍ مُستَعار وفي لقاءٍ واحدٍ يَتيم، دفَعَتا بفصُولِ المَسرَحيَّةِ إلى الذُّروَة. وبقيَ غيث أيَّامًا ولياليَ يطبُخُ بطبخَتِهِ، تلكَ الصَّفقَة التّاريخيَّة التي حَظِيَ بها

---

[1] سِفر التكوين.

صديقُهُ المُحامي المُتدَرِّج، على نارٍ حاميَة. قالَ الشَّاري المُهاجر للثَّلاثة.. غيث وصديقِه وخالِ صَدِيقِه:

– أنا عائدٌ إلى دُبَيْ خلال أيَّام.. وسوفَ أعودُ بعدَ ثلاثة أسابيع. سأعطيكَ الآنَ شيكًا ٥٠٠ ألفٍ كرَعبون.

وافقَ غَيث للحال وأخذَ الشّيك. وأمّا بشأنِ الاتّفاقيَّة بينَ الثلاثة، والتي نَصَّ بُنودَها غَيث.. أنّه إذا حَصلَ الثلاثةُ على المليون يتقاسَمونَها بالتَّساوي. وإذا افتُضِحَ أمرُهُم يُبعِدُ غَيث صَديقَيه في التَّحقيقاتِ عن القَضيَّة، ويدخلُ السِّجنَ وحدَه، لأنَّ عقوبة النَّصبِ والاحتيال سَنَةٌ ونصفُ السَّنَة كحَدٍّ أقصى. وإذا حَصَلوا على جزْءٍ منَ المبلغ مهما كان يكونُ نصفُه لغَيث. وبعدَ أيّام قبضَ غيث شيك الـــ ٥٠٠ ألف وقدَّمَ وَصلاً بما قبضَ. فأخذَ ٢٥٠ ألف والباقي لشَريكَيه. ثمَّ عادَ الشَّاري من دُبَي ودفعَ النِّصفَ الثَّاني منَ المليون كاش سَحَبَها هو من المصرف، وسَجَّلوا له العقار باسمِهِ بواسطةِ شَعوَذَةِ الأوراق المُزَوَّرَة. وتقاسَمَ الشُّرَكاءُ الثلاثة الحِصَصَ بحسَبِ بُنودِ الاتِّفاقيَّةِ مع غَيث.

وسُرْعانَ ما انكشَفَتِ المؤامرَة!

بعدَ شهر زمان لا أكثر.. جاءَ الشَّاري البائِس ومعه العُمَّال يُريدُ أن يُسَوِّيَ أرضَهُ الجَديدَة ويَبنيَ سُورًا لها لتَثبيتِ حُدودِها. وكانَ أنَّ أحدَ رُعاةِ الماشيَة من تِلكَ البَلدةِ الفتوحيَّةِ الصَّغيرَة، وهو رَجُلٌ ستِّينيّ، يقودُ قطيعَهُ صدفة، بالقربِ من وَرشةِ استِصْلاحِ العِقار هذه. فاقترَبَ من العامِلِ البَنَّاء وَحَيَّاه وَمُعاونَيْه:

– يعطيك العافيه يا معلّم.

– الله يُعافيك. أجابَ المُعلِّم والسِّيكارةُ في فمِه يتداعى رمادُها حتى نصفِها، وجَبينُه يرشحُ منَ العرَق.

– هل تعمَلون لدَى الدَّوْلة؟ سأل الرَّاعي.

فأجابَ البَنَّاءُ صادِقَ النيَّة:

– لا.. لقد جاءَ بي مالكُ الأرضِ لكي أبنيَ لها السُّور.

ونقلَ هذا الرَّاعي من فورِه الكلامَ إلى البلدَةِ فالمُختار فرَئيسِ البَلدِيَّة.. وانكشَفتِ التَّنصيبَةُ بَعدَ لأيٍ. وكانَ النَّاتجُ النِّهائِيّ لهذه المُغامرَةِ الرَّائدَة دخولَ غَيث إلى السِّجن ليقضيَ هناكَ حوالي ثمانيةَ عشرَ شَهرًا، نائمًا على ٣٣٠ ألف دولار وزَّعَهُم على مَصرفَين، وأبقى في اعترافاتِه شَريكَيْه نَظيفَين كما وَعَد.

والمسكينةُ إيميه! عندَما تناهَى الخبَرُ إلى مسامِعِ إيميه فَقدَتْ صوابَها! وبَدَتْ لشَهرٍ من الزَّمَن ذاهلَةً.. تنتابُها نوباتٌ منَ الخبَل حتى خُشِيَ عليها من الانهيار الكامِل. ثمَّ هضَمَتِ الصَّدمةَ معَ مرورِ الأيّام واستعادَتْ عافيَتَها النَّفسيَّة. والزَّمَنُ خيرُ طبيب. وأوحَتْ إليها ذاتَ يَوم ابنَةُ عَمَّتِها بفكرَةٍ، لتساعدَها على الخروج من دَوَّامةِ التساؤُلات والوَحشَة، فأسَرَّتْ إليها:

– لماذا لا تزورينَه في السِّجن يا إيميه؟

فأجابَتْها إيميه:

– كيف؟ وأهلي يريدون أن أمسَحَهُ من حَيَاتي بالكامل! ذهابي إليه يزيدُها تعقيدًا.

– ألا زلتِ مُقتنعَة بهِ يا إيميه؟ غَيث ليسَ الرَّجُلَ المثاليَّ الذي تطمَحينَ إليه.

وعندَما تَنفرِدُ إيميه بنفسِها.. وتناجي نفسَها تارةً وحَبيبَها السَّجينَ طورًا.. كانت تلومُه بلطفٍ ثمَّ تُعاتبُ وتثور.. بَل وتصرُخُ لدَرَجةِ السُّبابِ والشَّتيمَة! ثمَّ تُهدِّدُ وتَتوَعَّدُ، لتنتَهيَ أخيرًا باكيةً في صَمتٍ مُرٍّ جَريح. بيدَ أنَّها سُرْعان ما تكفكِفُ دُموعَها وتُقنِعُ نفسَها بضرورَةِ إعطائهِ فرصَة.. كَرْمَى لعُيُونِ الحُبّ.. إن هي إلاّ تجربَةٌ شَبابيَّةٌ وحمَاسةٌ متهوِّرَة عندَه لا أكثر، و"الصَّديقُ وقتَ الضِّيق". وبعدَ صِراعٍ لاهبٍ مع الفِكر والفِكر المُضَادّ، والرَّأي والرّأي المُعاكِس، عزَمَتْ أخيرًا على أن تزُورَه في السِّجن. وكانَ يومُ لقائِها به في السِّجن يومًا تائهًا شاحبًا كئيبًا قليلَ المَطر.. كأنَّ الطَّبيعةَ تؤاسيها وتُشاركُها وَحشتَها وكآبتَها. لقد رافَقتْها ابنةُ عَمَّتِها في مشوارها هذا.. ورجلاها تُحاولان بينَ الفينةِ والفَينة أن تتمَرَّدا عليها.. والتَرَدُّدُ رفيقٌ ثَقيل وَظِلٌّ مُخيفٌ لهُما. بيدَ أنَّ نداءَ الحُبِّ

أمْرٌ.. وغيث لن تَحظى بمِثلِهِ طوالَ العُمر. الحُبُّ الحَقيقِيُّ يُشبهُ العُمر، لا يأتي غيرَ مَرَّةٍ واحدَة! خرَجَت إيميه من غرفةِ التَّفتيش (السّكانر) في ذلِكَ السِّجنِ المُنعزل في الضَّاحيَةِ الشَّرقيَّة، ناجيةً بنَفسِها من حَشدِ الزَّائِرين من ألف صنفٍ ولون، ومن مُيُوعَةِ العَسكريِّين الذين يكادُ واحدُهم يَسقطُ على الأرض من فرطِ مَلَلِهِ وعَيائِه، وبَقيَتْ ابنةُ عَمَّتِها تنتَظرُها خارجًا. ثمَّ اتَّجَهَتْ مباشَرةً إلى النَّافذة حيث الشَّبَكُ الحَديديُّ تُخْمٌ فاصلٌ بينَها وبين غَيث، وكانَ يقفُ معَها في الغرفةِ عَسكريَّان يُراقبان المُقابلةَ والحِوار. وما إن أطلَّ غَيث أمَامَها.. أصابَها الذُّعرُ من هزالِ مَرْآه! كأنَّه إنسان آخر. شُحوبٌ في الملامِحِ وسَوادٌ حولَ العَينَين واللِّحيَةُ السَّوداءُ مُرسلَة. وعندَما شَهقَتْ إيميه وتراجعَتْ إلى الوراء خائفةً، وتكلَّمَتْ بصَوتٍ عالٍ:

– هل أنتَ غَيث الرَّاسي يا هذا؟ ربَّما هناكَ خَطأ ما.

أمرَها العَسكريُّ أن تُخفضَ صوتَها.. فقالَ غيث مُهدِّئًا إيميه:

– أنا غَيث يا إيميه.. أنا غيث لا تخافي. ماذا تفعلين هنا؟

فعادَتْ وَحدَّقَتْ مليًّا في وَجهِهِ وهندامِهِ المُبَعثَر.. ثمَّ اقتربَتْ وقالت:

– وماذا تتوقَّع منِّي يا شَيطان؟! إنّه أقلّ ما يُمكنُ أن تفعلَه فتاة تجمَعُها علاقة جادَّة بشابّ. حالتُكَ مُزرية جدًّا! هل أنتَ على ما يُرام؟

– أنا بخير يا إيميه صَدِّقيني. ولكن أنتِ.. ألستِ غاضبةً منِّي؟

– لستُ غاضبَةً. هذا طيشُ شَباب أعرفُ هذا.. نَزوَة عابرَة.. وكلُّنا مُعرَّضون للسُّقوط. و"غلطة الشّاطر بألف غلطَة".

وَسافرَ غَيث في عَسَلِ عَيْنَيها الصَّادِقتَين.. لم يَحْرِ كلامًا يتفوَّهُ به إزاءَ وفائِها البَريء. صِدْقُ مشاعرِها وبرَاءَتُها وإيمَانُها به.. جَعله يُشفقُ عليها. قالَ لها:

– أنا لستُ جَديرًا بكِ إيميه. لقد حَسِبتُ حسابَ كلِّ شَيْء إلاّ أنتِ.. لم افكِّرْ بكِ قطّ! لم اتوقَّعْ مَجيئَكِ إلى هنا أصلاً!

فانفَعلتْ عندئذٍ إيميه في وَجهِه صارخةً:

– وهل تريدُني أن أتَخلَّى عن كلِّ شَيْءٍ بَينَنا هكذا ببَساطة.. وبسبَبِ جُنونِ طموحاتِك؟ ماذا تحسبُني يا هذا؟

فتدخَّلَ العَسكريُّ ثانيةً وقالَ لها:

– لكِ خمسُ دقائق بَعد يا سيِّدَتي. وأخفِضِي صَوتَكِ وإلاّ أنهَيتُ اللّقاءَ الآن.

– كم ستبقى في السِّجن؟ سألَتْ إيميه.

– سَنَة ونصف تقريبًا. أجاب.

– نَصبٌ واحتيال أليسَ كذلك؟

فأجابَها مُحاولاً إغراءَها وإقناعَها:

– إنَّها ٣٣٠ ألف دولار يا إيميه!! قالَ هذه الكلمات بصوتٍ هادئٍ لا يوحي بالاعتراف.. وهو يراقبُ نَسَماتِ عَيْنَيها في أيِّ اتِّجَاهٍ عاصِفةٍ هي. وَأضاف:

– أنتِ حُرَّة في أن تنتظريني أو لا.

فقالت له وهي تَشرُقُ بدُموعِها.. والغيظُ تكظمُه في وَميضِ عَيْنَيها:

– وهل أبقى الحُبُّ لي خيارًا؟ ما كنتُ أظنُّ أنَّكَ عِصَاميٌّ على هذه الشَّاكِلة البائسَة!

– إذا انتظَرتِني يا إيميه سيكونُ لدينا رأس مال كبير لبناءِ حَياةٍ جَديدةٍ رائِعَة.. وبمَقدورنا معًا أن نَصِلَ إلى المُستَحيلات.

فأدارَتِ المِسكينةُ ظهرَها له، وخَطَتْ ثلاثَ خطواتٍ، ثمَّ عادَت ونظرَت إليه لتقول له:

– أنتَ تحبُّ المالَ أكثرَ منِّي يا غيث. وخرَجَت منَ الغرفة.

وكانت تبكي.. وتذرفُ دَمَعاتٍ لاهبَة. واجتاحَها شَكٌّ قويٌّ، ربَّما، بأنَّ قلبَها ساعٍ في إثرِ الرَّجُلِ غير المناسب. بيدَ انَّها لم تصنعْ قرارًا حاسمًا نتيجةً لهذا اللّقاء. وفي لقاءٍ

آخرَ وليسَ الأخير بينهما في تلكَ الغرفةِ القاتمَة التي رَأت فيها إيميه مَقبرَةً لحُبِّها الفتِيِّ المَخدوع، وكانَ غيث هذه المَرّة حَليقَ الذَّقنِ مُرتَّبَ الهندام، حدثَ بينهما ما أعادَ الثِّقة إلى قلبِها بعضَ الشَّيء. كانَ هو أكثرَ قوَّة من اللّقاء الأوَّل. وراحَ يُقنِعُها بأنَّ الشَرَّ فَضِيلة! ويرسمُ لها المُستقبَلاتِ مشاريعَ وطموحاتٍ وأحلامًا عِذابًا.. ويُجمِّلُ لها السَّفرَ إلى الخارج وبناء شَركة.. وطالبَها أن تنتَظِرَه بإلحاح ما تبَقَّى له من سَجْنَتِه. وأكَّدَ لها بأنَّه يُحبُّها وهو باقٍ على العَهد. ومعَ أنَّ العلاقة أوحَتْ في مَسيرَتِها بأنَّها في طريقِها نَحوَ الزَّواج.. ولكنَّ فكرةَ الزَّوَاج بحدِّ ذاتِها لم تكن حاضرةً بقوَّةٍ فيها، وهذه "العاصِفةُ المُصْطنعَة" دَفعَتْ بها قدُمًا إلى الواجهة.

قالَ لها غَيث برومنسيَّة:

– أشتَهي أن أقبِّلَ راحَتَيكِ النَّاعِمَتَين يا إيميه. أشتهي أن تجولَ أناملُكِ الطّاهرَة في شَعري وتُداعبَ أذني ووَجهي وفمي. هنا فقط أدرَكتُ قيمةَ تلكَ الأوقاتِ الرّائعَة التي قضَيناها معًا. إنتظريني يا إيميه.. سنعودُ إلى تلكَ الأيَّام الحُلوَة.. لأنَّها حتمًا تنتظرُنا.

فتنهَّدَتْ.. وقالت بصَوتٍ خافِتٍ يغُصُّ بالدَّمعَة:

– يا حَبيبي يا غَيث.

تركَته إيميه هذه المرَّة شبهَ مقتنعَةٍ بأنَّها غيمة سوداءُ في حياتِهِ، والسِّجنُ تأديبٌ يُرجعُه عن غِيِّهِ ويُثيبُهُ إلى رُشدِه. ولكنَّ إيميه كانت تجهلُ تمامًا أنَّ في الجانبِ الآخر منَ التَيَّارِ غَريمَةً فكَّرَتْ بالذَّهابِ إليهِ في السِّجن أيضًا وفعلَتْ.. وهي سَابين سماحَه. سابين تلكَ المُتيَّمَةُ المُتنمِّرَة راحت تزُورُ غيث مرَّةً في الشَّهر، وطوالَ مُدَّةِ سَجْنِه، وفي كلِّ مرَّة كانت تتجلَّى له في تأنُّقٍ باهر وتألُّقٍ مُثير كأنَّها كائنٌ خرافيّ. فجَعلتْه بفنِّها الإغوائيِّ يتعوَّدُ الاشتياقَ إلى رؤيَتِها.. وكادَت إلى حدٍّ بعيدٍ أن تنافسَ إيميه في عقلِه. ولكنَّه قطعَ عَهدًا لإيميه وطلبَ منها الانتظار، وهو باقٍ على عهدِهِ! وليسَ بدافعِ الوفاءِ البتّة! بل لأنّ إيميه هي الحالةُ الأولى الوَحيدَة التي لقَّحَتْ دِماغَه بفكرَةِ الزَّواج. سألته سابين ذاتَ مرَّةٍ في إحدى زياراتِها له في السِّجن:

– ألم تأتي إليكَ إيميه؟

فصمَتَ قليلاً وهو يفكّرُ في الجَواب. ثمَّ قالَ وآثرَ أن يكونَ صريحًا، وهو يجهلُ دَخيلةَ سابين جَهلاً ساذجًا:

– بلى. زارَتني مرَّة واحِدَة.

فسألتهُ أيضًا:

– ما زلتُما على وفاق؟

وفي سؤالِها الثاني أرادَ أن يكونَ واضِحًا أيضًا معَها:

– بلى سَابين.. إنَّها تنتظرُني لنُكمِلَ الطّريقَ معًا.

عندَها تأكَّدَت سابين أنَّ دخولَ غَيث إلى السِّجن ليسَ حائلاً بينَ الحَبيبَينِ البَتَّة. وهي التي أجَّلَتْ مؤامرَتَها معَ ابنِ الوَزير فراس، ظنًّا منها أنَّ السِّجن كافٍ لإنهاءِ علاقة إيميه وغَيث. وفِراس عَضَّ على جُرحِهِ هو الآخر سَنةً ونصفَ السَّنَة.. هذا وإيميه جَبُّور تكادُ تكونُ شبَحًا مُختفيًا عن ناظرَيهِ طوالَ هذه المدَّة. فلا بدَّ والحالة هذه، من الاستفادَةِ من عامِلِ الوقت لفِعلِ شَيْءٍ. لقد فكَّرَت سَابين كثيرًا.. واستَحضَرَتِ الجِنَّ والعَفاريتَ لكي يُملوا عليها إرادَتَهم في تَدميرِ علاقةٍ مُرتبكةٍ أصلاً ومُتداعيَة.. فتظهَرَ المؤامرةُ للرّأي العامّ كأنَّها حَظٌّ تاعس لإيميه. ودارتِ الفكرَةُ في رأسِها جيِّدًا، ورأتْها صالِحَة للتَّنفيذ. وهي لا تقدرُ أن تنفِّذَها لوَحدِها.. وساعدُها الأيمَن في المَهَمَّة هو ابنُ الوزير طبعًا.. العاشقُ رقم واحد للشَّقراء ذاتِ العَينَين العَسليَّتَين السَّاحرَتَين. قالت لفِراس على الهاتف:

– يجب أن نلتقيَ يا فراس.. لقد استوَتِ الطَّبخة.

– هل حَضَرَكِ الوَحْيُ الآنَ يا شَيطانة؟ سألَها فراس مازحًا.

– الفكرَة جاهزَة.. ولكن التَّنفيذ عليكَ أنت.

– أنا حاضر لأيِّ شيءٍ يردُّ لي كرامَتي، ويُمهِّدُ السَّبيل للفَوزِ بإيميه.

وهكذا تواعَدا على لقاءٍ في أحَدِ مقاهي "المعْامِلتَين"[٢] ذاتَ مساء. فجَلسَا قربَ الواجهةِ الزُّجاجيَّةِ الواسعة المُشرفة على لكَمَاتِ الأمواجِ للصُّخور، فيَهدُرُ صَوتُها تحتَ الأرض كأنَّ المَقهى قاربٌ تحملُهُ الأمواجُ إلى عَرْضِ البَحر. أشعَلَت إيميه سيكارةً ومجَّتْ مجّةً وقالت لفراس:

- لا شَيْءَ يباعدُ بين غَيث وإيميه سوى الخيانة.

صمتَ فراس لثوانٍ. ثمّ قال:

- الطَّرحُ النَّظري صَحيح.. ولكنَّ الوسيلةَ أكثر أهميَّة.

ثمَّ عادَت سابين وتحدَّثَتْ كأنَّها تفكِّرُ على صوتٍ عالٍ:

- ولكنَّ الخيانةَ تحتاجُ لسيناريو وإخراجٍ ووثائِقَ ووَقت. وربَّما انكشفَ أمرُها.. ولذا فهي غير مضمونة.

- والبديلُ برأيك؟ سألَ فراس بإلحاح.. منجذبًا لاكتشافِ عبقريَّةِ مُحدِّثَتِه.

- البديلُ هو اغتصابُ إيميه.. وغَرسُ جَنينٍ بالقوَّةِ في أحشَائِها!

وسكتَتْ لترَى تأثيراتِ الفكرَة في عَينَيه. فقالَ فراس مُستنكرًا:

- ما هذه الفِكرَة الشرِّيرَة؟! لا.. لا.. أنا لنْ أفعلَها!!

- لستَ أنتَ الفاعل يا هذا.. بل مُغتصبٌ مَأجور.

- مُغتصِب مأجور؟!!

- لا تقلْ لي أنَّكَ تُريدُ أن تتزَوَّجَها؟! تَسلَّ بها لفترةٍ من الزَّمان.. والجَميلاتُ سِواها كثيراتٌ يا رَجُل. انتَ ابنُ وَزير.

وصمتَ كلاهُما لثوانٍ.. كأنَّها دَهر. وكانت سابين تراقبُ رقصاتِ الضَّوءِ في عَينَي جَليسِها. شَعرَتْ بأنَّها أقوى منه بكثير.. بل تستطيعُ أن تجعلَهُ دُميةً في يدَيها. ومَكرُ

[٢] حيّ على البَحر في مدينة جونيه.

المَرأةِ العاشقة أكثرُ فتكًا من مَكرِ الرَّجُل العاشق. بل الرَّجُلُ العاشقُ إنسانٌ ضَعيف. فالمرأةَ تثورُ عَبقريَّتُها في غرامِها.. والرَّجُلُ، ربَّما، يَفقدُ رُشدَه! وعندما مجَّتْ سابين مَجَّةً أخرى من سيكارتِها.. عادَ فراس وحدَّقَ في ملامِحِ وَجهِها المتماوجِ وراءَ سَحابةِ الدُّخانِ الخارج من فمِها.. وعيناها كأنَّهما من زُجاج.. أو كعَيني التِّمساح عندَما يَقضِمُ فريستَه ويقطِّعُها إرْبًا إربًا. من جانبِه هو قدَّمَ كاملَ استِعدادِه للتَحالفِ معَ الشَّيطان لاستردادِ كرامتِه والحصول على إيميه، فقالَ لها:

– أنتِ شيطانة كبيرَة يا سابين. وذكيَّة جدًّا. ومن أينَ نحصَلُ على هذا المُغتصِبِ المأجور برأيك؟

ولم تجب سابين من فَورِها.. وتركَتْ فسحاتٍ من الصَّمتِ في الكلام مع فراس، لكي تهضمَ عَقليَّتُه الخاملة سُرْعةَ إبداعِها الفِكريّ. وأجابَتْهُ:

– علاقاتُكَ كثِيرَة. بإمكانِك الوصول إلى فارسٍ شَقِيٍّ بسُهولة.. تُعطيهِ مالاً.. ونُملي نحنُ عليه طريقةَ التَّنفيذ.

– وما هي طريقةُ التَّنفيذ؟

– يَخطفُها بواسطةِ المُخدِّر.. بكلِّ بساطَة.. ويَفعلُ فِعلتَه وهي لا زالتْ مُخدَّرَة.

وبدأتْ تقرأُ سابين ملامحَ الارتياح في وَجهِ فراس. ثمَّ عنَّتْ له فكرَة.. فتابَعَ مُتسائِلاً:

– وسيَعرفُ غَيث بالحِكايَة... ورُدودُ فِعلِه؟!

– عندَما يكون هناكَ جَنينٌ في أحشائِها.. لن يَبقى راغبًا فيها؟ وهنا يأتي دَوري أنا. أجابَت بثِقة وعَيناها تتوَهَّجانِ في خبث.

فقالَ لها فراس بصَوتٍ راجفٍ:

– أنا هكذا أشبهُ فاتِحًا داخلاً إلى أرضٍ مَحروقة.

غمَسَتْ سابين سيكارتَها في المِنفَضَة، وقالت له بنَبْرَةٍ حازمَة:

– الأشياءُ القيِّمَة غالية الثَّمَن. هذا هو ثمنُ حصولِكَ على إيميه جَبُّور. وعندَما يترُكها غَيث.. تصبحُ غزالةً سَهلةً طيِّعَة لك.

ثمَّ مَرَّتِ الأيَّامُ.. وسابين تطاردُ ابنَ الوَزير باتِّصالاتِها وتسأله إذا كانَ حَظِيَ بالمُغتصِبِ المأجور هذا. ولكنَّه اتَّصلَ هو بها ذاتَ يَوم ليَقولَ لها:

– لن يكونَ هناكَ غاصِبٌ مأجور! لقد عَدَّلتُ مَوقِفي وأحدَثتُ تغييرًا بَسيطًا في الخُطَّة. أنا سأكون هذا المُغتَصِب! وسَأكونُ الخاطفَ وغارسَ ثمَرَتِي أنا في رَحِمِها. هذا السِّيناريو أكثرُ توافقًا معَ غايَاتي.. القريبَةِ والبَعيدَة.

ورَحَّبَتْ سابين بهذا التَّعديل، وراحَتْ تنتظرُ بشَوق ساعةَ التَّنفيذ. وأبقَتْ على تجلِّياتِها المُغويَةِ لغَيث في السِّجن، وتَخديراتِ أحلامِهِ بإيميه. وهكذا أعطتْ لفراس المَعلوماتِ اللاّزمَة عن إيميه تسهيلاً لتَكتيكِه. ولم تضَعْ سابين سماحَه في حِساباتِها احتِمالاتِ الفشَل، والعاشِقُ كالغريق أو التّائهِ وَحيدًا في الصَّحراء.. لا ييأسُ أبدًا من النَّجَاة.

وبينما كانَ فراس يدرُسُ خطواتِه، وسابين تنتَظِرُ بفارغِ الصَّبر التَّنفيذ، كانت إيميه جالسةً على شُرفةِ الحَيرَةِ والغُرْبَة، تحلمُ بفارسِها روميو مُتسلِّقًا تعريشاتِ بَيتِها، ليَثِبَ إلى الشُّرفة ويَأخذَها بينَ ذراعيه ويقولُ لها: "لقد جئتُ إليكِ يا أميْرَةَ حُبِّي كما وَعَدتُكِ.. لكي نطيرَ على بساطِ الأحلامِ بَعيدًا.. إلى جَزيرَةِ الحُبِّ هناك.. لنَبْقى يا مَولاتي الحُلوَة رُوْحًا في جسَدَينِ إلى الأبَد". فإذا برَنينِ الهاتفِ يوقِظُها من خَيالاتِها الجَريحَةِ هذه، ويطلبُ الحَديث معَها. فأخذَتِ السمَّاعَة.. وإذا بصَوتٍ رُجوليٍّ أجشٍّ يقول لها:

– إيميه جَبُّور أنا فاعلُ خير. أتَّصلُ بكِ لأعلِمَكِ بأنَّ مَكيدَةً شَيطانيَّة تُحاكُ لك.. وتستهدفُ حَياتَكِ وحُبَّكِ لغَيث. فأرجوكِ أن تأخذِي الحِيطَةَ والحَذَر. ولا تسألي مَن أنا.. هويَّتي لا أهميَّةَ لها هنا.

*****

الورقة الثانية عشرة

ميِّتٌ مَن لا يُجازفُ باليَقين،
في سَبيل اللايَقين..
لئلا يُطاردَ أحَدٌ أحلامَه.

بابلو نيرودا

هناكَ أناسٌ يَصنعونَ الأحداث،
وأناسٌ يتأثَّـرونَ بها..
وهناكَ أيضًا مَن يَجهَلُ تمامًا ماذا يَحدُث.

جورج برنارد شو

– من أنتَ يا هذا؟

– قلتُ لكِ يا إيميه أنا فاعل خير.

– ولماذا أصدِّقُكَ؟!

– إذا لمْ تصدِّقيني فأنتِ الخاسِرَة.. والخطَرُ المُحدِقُ بكِ حَقيقِيّ!

– إذًا فلنُخبِرِ الشُّرطَةَ بالأمر.

– وماذا ستَقولينَ للشُّرطة يا إيميه؟

– سأخبرُهُم باتِّصالٍ من فاعلِ خيرٍ مَجهول الهُويَّة.. يَوحي إليَّ بتهديداتٍ من مَجهولٍ آخرَ أيضًا. وسأطلبُ الحِماية.

كانَ هذا الحوارُ دائرًا على الهاتف بينَ إيميه جَبُّور والرَّسول المُنقِذِ الذي طلعَ لها منَ العَدَم كاليَمامةِ من عباءَةِ السَّاحر! وقد نقلَ إليها أخبارًا في اتِّصالٍ سابق عن مؤامَرَةٍ شَيطانيَّةٍ تُحاكُ لها. وها هو الآنَ في اتِّصاله الثاني يوقِدُ في هشيمِ جُروحِها نارَ الخَوفِ والقلَق، ويُجهزُ على ما تبقَّى من سَقيطِ عزيمَةٍ في ذاتِها، وهي بحاجةٍ

ماسَّة إليها. وكانَ التَّصميمُ أن تواجهَ التَّحدِّيات لوَحدِها، وتُبقِيَ ذويها بَعيدًا عن دَوَّاماتِها. لأنَّ اتِّساعَ جُغرافيا المَعمَعَةِ يزيدُ في اتِّساعِ الهُوَّةِ بينَها وبينَ غَيث. وعَنَّ لها اللُّجُوْءُ إلى الشُّرطة.. ولكنَّها رأت أن تتريَّثَ أيضًا في هذا المَوضوع، حِمَايةً لنَخيلِ غَرَامِها وتَمْرِهِ من شَهيَّاتِ خَفافيشِ القيلِ والقال، وتبقى متأهِّبَةً في محَطَّةِ الانتِظار ريثما يَصِلُ قِطارُ الفَرَج. وصارتِ الخُروجاتُ قليلة ما خلا الجامعَة، والسَّيرُ خارجَ البَيت، دائمًا، معَ الاصدقاء والرِّفقة. ثمَّ عادَتِ الأيَّامُ تكِرُّ.. كفاكوناتِ القطار مَشبوكةَ الأيدي، لا يُفرمِلُها شَيْء. وبدا أنَّ الحَيَاةَ تسيرُ سَيرَها الطَّبيعي، وأصبَحَ الشَّوقُ إلى غَيث أنيسَ وَحشَتِها الوَفيّ. وذاتَ مَسَاء.. كانت إيميه قد تأخَّرَتْ عندَ صَديقتِها في منزلِها في أسفلِ البلدَة. وكانتا تشتَغِلان على الفروضِ والواجباتِ الجامعيَّة، وبدأ اللّيلُ يقاربُ نِصفَه، قالت إيميه لصَديقتِها:

– أصبَحَت السَّاعة العاشرَة والنّصف.. لا أستطيعُ أن أتأخَّرَ أكثر.

– حسنًا.. سأطلبُ من أخي أن يوصلَكِ.. لا تذهبي لوَحدِكِ. قالت لها صديقتُها.

ونزلَتْ إيميه منَ الطّبقَةِ الثالثةِ في البنايةِ إلى البورَةِ التُّرابيّةِ التي بجانبِها، لتركبَ معَ أخي صَديقتِها الشَابّ المُراهق، فيوصلَها بسيَّارةِ أبيهِ إلى بَيْتِها في رأسِ البَلدَة.

وما إنْ عبرَتِ السيَّارةُ بهما آخرَ الزَّاروب.. ووَصلا إلى منعطفِ الطّريق العامّ عندَ الحَوْرَاتِ الكبيرَة.. اعترَضَتْهُما سيَّارَةُ فولفو دُخانيَّةُ اللَّون وأجبَرَتِ السَّائقَ الشّاب على أن يوقِفَ سيَّارتَه إلى جانبِ الطَّريق. ثمَّ انبَثقَ منها بسُرعةِ البَرق رجُلان بنَظَّارَتَين سوداوَين للتَّخفّي، وركضا إليهما. صرخَتْ إيميه! والشَابّ بجانبِها صَارَ يَرتَجفُ كورَقَةِ الخَريف. شَهَرَ واحدُهُما سِلاحَهُ في وَجهِ الشَابّ.. وصاحَ به:

– ضَعْ رأسَكَ في الأرض وليه!

فصارَ الفتى يَبْكي بُكاءَ الأطفال.. وقد غَطَّى رأسَه بكلتا رَاحَتَيهِ وَخبَّأهُ بَينَ رُكبتَيه.

وما إن كَمَّ أحَدُ المُهاجِمَين فمَ إيميه حتى شعرَت بإعياءٍ وارتخاءٍ في أطرافِها.. وبدا العالمُ في نظرِها ألوانًا تتداعى كتموُّجاتِ الأحداثِ في كابوسٍ مُزْعج. ولم تَصحُ من هذا

الكابوس إلاّ على مَقرُبةٍ من بَيتِها وفي سيَّارَةٍ غريبةٍ لا تعرفُها! كانَ السَّائقُ رَجُلاً يُخفي مَلامِحَه بقبَّعَةٍ ونظَّارَتَين هو الآخر، يضعُ محرمَةً ذات رائحَةٍ منعشَة على أنفِها.. فاستَفاقَتْ مَذعورَةً! وقالت بتكاسُل وهي لا تكاد تدركُ مَعالمَ الأشياءِ من حَولِها:

– مَن أنت؟! إبتَعِدْ عَنِّي.

– أنتِ الآنَ بأمانٍ قربَ منزلِكم يا إيميه.. هيَّا اذهبي. لقد أنقَذْتُكِ منَ الكارثة.

قالَ بهُدُوء، ثمَّ دارَ حولَ السيَّارَةِ وأمسكَها بيَدِها وساعدَها على الوقوف. جمَدَتْ مكانَها كالجِدار. وعادَ هو إلى السيَّارَة ونظرَ إليها وقالَ مبتسِمًا، وقد استَشعرَتِ ابتسامةً في مُحيَّاه، معَ أنَّها لمْ تَعِ ملامِحَه قطّ:

– الحَمدُ لله على السَّلامةِ يا إيميه جَبُّور. أنا هو فاعِلُ الخير. وانطلق.

وفي اليومِ التَّالي، عادَ واتَّصلَ ليَقولَ لها:

– لا أعرفُ لماذا أنتِ لا تُخبرينَ الشُّرْطة! لقد أنقذتُكِ البارحَة من يَدِ المُغتصِب لا القاتل.. لأنَّ الهدَفَ جسَدُكِ وليسَ حياتَك. دُمْتِ بخَير إيميه.

وما إن سَمِعَتْ إيميه هذه الكلمات حتى امتلكَتْها الرِّجفةُ من أمِّ الرأسِ حتى الأخمُصَين. ومَشَتْ إلى دَورَةِ المياهِ كرَجُلٍ آليٍّ بطيئةَ الخُطى، ودَمعةُ المَرَارَةِ تترَقرَق في عَيْنَيها ودقّاتُ القلبِ تتسارع. أقفلتِ المسكينة الحَمَّامَ وراءَها، ونزعَتْ عنها ملابسَها وراحَت تتحَرَّى تضاريسَ جَسَدِها ومَعابرَهُ أمامَ المِرآة.. وأدْخَلتْ أنمُلَها بَيْنَ فَخذَيْها.. لتكتَشِفَ أنَّها لا زَالتْ عَذرَاء! فتنَفَّستِ الصُّعَداء واستَرخَت أعصابُها. ولكنَّ الحَقيقةَ المُذهلة التي أدرَكَتْها الآن.. أنَّ فاعلَ الخَير هذا صادقٌ في جَميعِ بياناتِه! لم يعد، والحالة هذه، بمقدور إيميه أن تخفيَ أمرَ هذه التَّهديدات. فأخبَرَت والدَيها وطلبوا الحِمَايةَ من الشُّرْطة، وشرَعَ رجالُ التَّحَرِّي في تقَصِّيَاتِهم. ولكن في الجِهَةِ المُقابلَة.. بل هناكَ في "الغُرفةِ السَّوداء" كانتْ خيبَةُ فراس ابنِ الوَزير وسابين سماحة مُرَّةً غاضبَة! فقدِ اتَّصلَتْ هي بهِ تسألُه بإلحاح، مَقطوعةَ الأنفاسِ مُضطربَةَ الكلمات، وكلا النَّمِر والغَزَالة يَتعَرَّقانِ منَ العَدْوِ أثناءَ عَمليَّةِ الصَّيد:

– طمْئِنّي يا رَجُل.. كيفَ جَرَتِ الأمور؟

وأجابَها فراس منَ الطرَفِ الآخر بصَوتٍ خافتٍ خائبٍ مرتجف:

– هناكَ مَن يَعرفُ بمَشرُوعِنا يا سَابين..

– ماذا تقول يا هذا.. ماذا حَدَث؟!

– لقد تدَخَّلَ بطلٌ فارسٌ مَجهول في اللَّحظَةِ الأخيرَةِ.. لا أدري كيفَ قفزَ منَ العدَم! وأنقذَ إيميه من يَدِنا.

فذُعِرَتْ سَابين.. وصمتَتْ لدَقيةٍ تُعارِكُ أفكارَها.

– ما بكِ ساكتَة؟ سألَها.

فقالت له بحَزْم:

– لنوقِفْ كلَّ شَيْءٍ مَرْحَليًّا يا فِراس. ولنتَوَارَ ونُراقبْ عَن بُعد كلَّ جديد.

وهاكذا عادَتِ الأيّامُ أيضًا وهَرْولَتْ سَريعَةَ الخُطى. وشَيئًا فشَيئًا عادَتِ الطمأنينةُ إلى قلبِ إيميه وعادَتْ تعيشُ وَتيرَةَ تناسُخاتِ يوميَّاتِها.. والشُّرطةُ لم تصِلْ إلى شَيْء. وَزَارَت غَيث مَرَّةً واحدَة أيضًا في السِّجن، سِرًّا، وكانتِ الأخيرَة. وأمَّا زياراتُ غَريمَتِها فدامَتْ حتى يومِ خُرُوجِه. فقد حَضرَتْ سَابين سماحَه بنفسِها إلى السِّجن، وأتَمَّت له بعضَ الأوراق ووَثيقةَ إنهاءِ مُدَّةِ المَحكوميَّة، وجاءَتْ به بسَيَّارَةِ أخيها البيجو الذَّهَبيَّةِ اللّون إلى فندُقٍ في برمَّانا، ليَتَناوَلا وَجبَةَ غداءٍ دَسِمَة بعدَ صيامِ غَيث الطَّويل عن الأطايب. وَجَلسا على طاولةٍ مُنفردَة. ثمَّ شَرَعا يتناولانِ المُقبِّلات على أنغامٍ شَرقيَّةٍ كلاسيكيَّةٍ خافتة. وسَألته سَابين:

– ما هي مَشَاريعُك الآن يا غَيث؟

تنهَّدَ.. وصمتَ لثوانٍ.. رشفَ رشفةً منَ الجِعَة، ثمَّ أجاب:

– لا عَودَةَ إلى الدِّرَاسَة البتّة. وأنا مُشتاقٌ جدًّا لِلكرَةِ الطَّائِرَة.

صمتَ ثانيةً قبلَ أن يتحدَّث ببُطءٍ.. متعمِّدًا أن يوصلَ لها رسالتَه الأكيدَة:

– وسأكملُ الطَّريقَ الذي بدأتُهُ معَ إيميه.

فابتسَمَت سَابين.. وسألَتْ في شبهِ تهكُّم:

– مشاريعُكَ متواضعَة جدًّا! أينَ الطُّموحاتُ السِّندِباديَّة؟

فأجابَ غَيث:

– الطّمُوحاتُ باقية.. ولكن برفقةِ إيمِيه.

فقالت له مُتماديةً في تَهكُّمِها، قبلَ أن راحَتْ تكرَعُ من كأسِ جِعَتِها:

– تُريدُ أن تقولَ أنَّ حبَّكَ أفلاطونيٌّ لهذِه الدَّرَجة؟!

وهكذا وضَعَ غَيث، في هذا اللِّقاء وبدبلوماسيَّة، حَدًّا لفكرَةٍ عندَ سَابين استَشعَرَها عَثرَةً له في مَسيرَتِهِ معَ إيميه.. وهو يَجهلُ تمامًا أنَّ دَخيلةَ سابين أكثر طموحًا ممَّا ظَنَّ. إنَّها من طينتِهِ الانتِهازيَّةِ الوُصوليَّة، وأسلوبُها يروقُ له. لقد تركَ قاربَه تجرُفُه قلَبَاتُ مَوْجاتِها.. إرضاءً لمُتعَتِهِ الإيروتيكيَّة التي بدأت تتَّقِدُ لجَاجتُها يومًا بعدَ يوم. كانَ يَعشَقُ فانتازيَّاتِ لباسِها المُستَفِز فوقَ تضاريسَ ومفاتنَ من نوعٍ صاخب. الطّريقة التي تُبرزُ شبُوبَ النَّهدَين، واللَّمَساتُ الزُّخرُفيَّة في وَضعِ التَبرُّجات، ودَلعَاتُ الخَصرِ والكتِفَين، وإيقاعاتُ صَوتِها حين تناديه باسمِه، والإيحاءَاتُ الجنسيَّة حينَ ترقصُ معه وتُعانقُه، ورُومنسيَّةُ مُغامَرَةِ الأنامِلِ فوقَ متاهاتِ جَسَدِهِ النائيَة.. ثمَّ تلكَ النَّوَافذُ الفضوحيَّة المُشرفة على بقاعاتِ البَشَرَةِ البرونزيَّة الأثيريَّة. هذا الخَليطُ ألَّفَ كوكتيلاً طيِّبًا.. ولذّةً مُقنِعَةً مُروِيَة. وعلى أساسِ هذه الآليَّة تعاقبَتْ فصولُ علاقة غَيث وسَابين.. وبخلافِ العلاقةِ معَ إيميه جَبُّور الهادفة.. فقط.. حتّى انبثاقِ تلكَ الثَريَّةِ اللُّبنانيَّةِ الأصل والأميركيَّة الجنسيَّة آنجيلا! وعندَما تحَدَّثَتْ إيميه إلى غَيث عنِ المُحاولةِ الفاشلَةِ والغامضَة لاغتِصابِها، طارَتْ صقورُ ظنونِهِ إلى فِراس ابنِ الوَزير. سألَها.. ذاتَ مَسَاءٍ.. وهما يتناولان عصيرَ الفواكِهِ في ذلكَ النّادي الليليّ في آخرِ الزِّقاق العتِيق في الطّبَقَةِ السُّفليَّةِ الأولى:

– كيف تقرأينَ ما حدَثَ لكِ إيميه؟

– ليسَ لدَيَّ تفسير. الشُّرطة لم تصِلْ إلى شَيْء. ويَبدو أنَّ الخَطَرَ قد زال. أجابَت.

– وفاعلُ الخَير هذا؟ سألَ غَيث.

– لقد انشقَّتِ الأرضُ وابتلَعَتْه هو الآخر!!

– شُكوكي تُحَوِّمُ صوبَ ابنِ الوَزير. قالَ لها.

– يبدو الموضوع انتهَى على خَير! لننسَ الأمرَ أرجوك.. ونَفتَحْ صفحَةً جَديدة. قالت بحَماس. ثمَّ صَمَتَتْ قليلاً.. وعادَتْ فسَألت كأنَّ وَحيًا هبطَ عليها:

– والدِّرَاسَة.. ألن تعودَ إلى مُتابَعَةِ دِرَاستِك؟

فأجابَ غَيث باقتِضاب:

– لا.. موضوع الدِّرَاسة انتَهَى وهذا قرار. وأنتِ.. كيف تسيرُ الدِّرَاسَة معَكِ؟

– جيِّدَة. إنّني مُرهَقة جدًّا منَ المشاريع. بالمناسبة ستقيمُ الجامعَة معرضًا لأعمال الطلاَّب الفنيَّة في الكَسليك[٣]، وهناك شَخصيَّاتٌ ووجوه مدعوَّة إلى الافتتاح. وأنتَ بالتَّأكيد أوَّلُ المَدعُوِّين.

– ولماذا أنتِ مُتَحمِّسَة لدَعوَتي؟

– لكي ترى أعمالي المائيَّة التي أنجَزتُها في غيابك.

وهكذا كان. عادَ وأقلعَ الغرامُ للعَهدِ الثّاني بَينَهما، معَ تحفُّظاتِ والدَي إيميه نحو غَيث.. والاقتناع بتردُّدٍ أن يُعطى فرصَة. وحتى ساعَتِها.. كانَتِ العلاقة بين غَيث وإيميه تبدو وكأنَّها، معَ ضَعَفاتِها وعَرَجاتِها، تنتَصِرُ على التَحدِّيات وتقفِزُ فوقَ العَثرات. ذلكَ أنَّ هذه العثرات من نَوعِ الحَصى الصَّغيرَة، ومتى جاءَ دورُ الصُّخور الكبيرَة قد يُحدِثُ الاصطِدامُ دمارًا ختاميًّا لهذه الدّراما المُرتبكَة بينَ هذين الحَبيْبَين..

[٣] جامعة الرّوح القدُس في مدينة جونيه.

خصوصًا إذا كانت تلكَ "العَصَا السِّحريَّةَ" التي تجعلُ الفقيرَ مليونيرًا في نَقرَةٍ واحِدَة! وأمامَ هذا النّوع منَ التَّعويذاتِ قد يَبيعُ غَيث إيميه وسَابين معًا.. وَحوريَّاتِ بابل وفارس ومصرَ وبلادِ الكنج جَميعَهُنّ بتَذييلٍ واحدٍ وخَتمٍ واحِد. وهكذا كانتِ الأيَّامُ والشُّهور فُصَاميَّةً تؤرجِحُ غَيث بينَ فضوحيَّاتِ سابين ورومنسِيَّاتِ إيميه. ولكن.. معَ الزَّمَن تكبُرُ كرَةُ المشَاعر.. وتتورَّمُ غَيْرَةُ المَرأةِ فتصبحَ متلازمَةً مُثقِلةً للبُنيَةِ النَّفسيَّةِ عندَها. وَعَنَّ لإيميه أنَّه لا بدّ من تمرير دُفعةٍ.. أو قِسْطٍ من الجنس لغَيث.. "كَرَعْبون"، هكذا ظنَّتْ، لطمأنَةِ قلبِها بسَنَدٍ وَهميٍّ، يضمَنُ لها كاملَ حُقوقِها في حُبٍّ تتناثرُ وَرَقاتُه الخَريفيَّةُ في مواسِمِ التِّيهِ والغُرْبَة. سوفَ تُرخي خَيْطَها لِزيزِ الشَّهْوَة.. وتُفسِحُ في المَجالِ لدَبُّورِ التَّقبيلِ والمُعانَقَة ومُداعبَةِ المَفاتِن.. وستوفِّرُ له فرصةَ الحُصُول على جزْءٍ من عبَثِ الرُّجولةِ في حَدَائقِ اللذَّة. وبعدَ مرحلةِ التأديبِ في السِّجن.. لا بُدَّ من ترضيَةٍ من نوعٍ ما تشجيعًا له للخُروج النِّهائيّ منَ التَّجربَة. خصوصًا إذا كانت هي أيضًا تشتاقُه! ولكنَّ هذا الرِّيسك.. بل الرِّهان المَجنون.. سيَمنَعُها من فرملَةِ الجُموحِ في اللَّحظَة المناسبة! سابين قويَّة.. وتجيدُ اللَّعِبَ والتَّلاعُبَ ولَجْمِ الانفِعالات.. وإيميه عَاطفيَّة حَسَّاسَة قد لا تكون خليقةً بهكذا مغامَرَة.. بل هي المُقامَرَة عينُها! لقد عادَ غَيث يُمارسُ رياضتَه المُفَضَّلة بشَغف. وَجَاءَ شَهرُ أيّار ليُنعِشَ القلبَ والمِزاج، وَخرجَ فريقُ الكرَة الطّائرة لنادي (مَرفأ الضّبّيّه) إلى مكانٍ طبيعيٍّ مُجَهَّز مُجاور لبلَدِة "لحفد"[٤] الهادئَة، في مُخيَّمٍ ريّاضِيٍّ تدريبيٍّ لخَمسَةِ أيّام... فنصَبَ الشَّبابُ خيَامَهم في مكانٍ مُنبَسِطٍ قريبٍ من باحَةِ اللَّعِبِ الفَسيحَة وتتوَسَّطُها الشَّبَكة. وتوزَّعَ البرنامَجُ الرِّياضيُّ اليَوميُّ بينَ الرَّكضِ الصّباحيِّ على الطّريق الرِّيفيّ حَولَ البلدَة، والتّمارينِ البدنيَّة قبلَ الظّهر، ثمَّ الغداء وَالاستراحَة، وبعدَها مباراةٌ في وقتِ العَصْر، ليَنتهيَ يومُهُم بسَهرةِ نارٍ حتّى الصَّباح. يَشوُونَ اللُّحومَ والدَّجاج والهوتدوغ والبطاطا، ويشربون النَّبيذَ والعرَقَ والجِعَة. وَيُطربُهُم في مَرَحِهم هذا عازفُ غيتارٍ بينَهم يُنشِدُ لهم الأغاني الشَّعبيَّة والغربيَّةَ بالسّواء. وَهذا المُخيَّمُ جزءٌ من تحضيراتٍ لمَوسمٍ حافلٍ طويل.

[٤] بلدة في أريافِ قضاءِ جبيل.

وفي عَصرِ اليَومِ التَّالي للمُخيَّم، وبينما كانَ الشّبابُ يستحِمُّونَ ويتَحَضَّرونَ لسَهرَةِ المَسَاء والمرَحِ المَفتوح.. رأوا من بَعيدٍ سيَّارَةً أخذَتْ مفرقَ الطّريقِ التُّرابيِّ متَّجهَةً نحوَ بُقعَةِ التَّخييم. قال واحدٌ من الشّباب:

– إنَّها سَيَّارَة عموميَّة.

– لدينا زُوَّار إذًا. رَدَّ آخر.

وعندَما اقتربَتِ السيَّارة وتوقّفَتْ عندَ الشُّجَيراتِ الشَّوكيَّةِ الكثيفةِ، وهبَطَتْ منها امرأةٌ فاتنةٌ شَقراء! فتعالتِ التَّصفيراتُ "التَّنميرات" من بعضِ الشّباب.. "يا أرض احرُسي ما عَليكِ"، "شو هالجَّسَد يا أسَد"، "لقد غيَّرَتِ الشّمسُ رأيَها وعادَت عن الغُرُوب"، "لا.. لقد نزَلَ البَدرُ لكي يُساهرَنا اللَّيلة.. نحن مَحظوظون". فهتفَ غَيث بالشَّباب بعدَ أن عرفَ هويَّةَ القادم:

– شباب شباب بليز.. هذه إيميه خَطيبَتي!

فقالَ واحدُهُم متلاعبًا بلفظةِ اسمِ إيميه:

– إذا هيك.. Aimer.. Aimé jusque bout de la nuit لكان!

– سدّ بوزَك أنتَ ويّاه.. أحسَن ما شوطَكْ بدَبشِي من هالدّبَشات. انتهَرَهُما غَيث.

وكلّما اقتربَتْ منهم إيميه كلَّما اكتَشفوا أنوثةً جارحةً من نَوعِ "ضَرْبُ الحَبيبْ زبيبْ". كانت مُتجلِّيةً في حُلَّةٍ رياضيَّة. الحذاءُ رياضيٌّ والجينز زنزانةٌ ضيِّقَةٌ لجَسَدٍ فيَّاض، والقميصُ معقودَةٌ فوقَ خَصرِها لكي تُفسِحَ في المَجَالِ لتَسَلُّلاتِ العيُونِ الشَّرهَةِ بينَ القميصِ والجينز. وفوقَ أنفِها النَّاعمِ اللّطيفِ أجلسَتْ نظَّارَتَين سوداوَين كأنَّهما أميرَي زَمانِهما. وَالشَّعْرُ الذَّهَبيُّ حُرٌّ يطير.. كأنَّ لإنامِلِ النَّسيمِ حكايةَ غرام طويلة معه، وفولار حَول العنُق شَفَّافٌ مُلوَّن كفَرَاشٍ فوقَ زَهرَة. وَصَمَتُ الشَّبيبَةِ إزاءَ هذا المَشهَد كهَيبَةِ مُرور أميرةٍ في شارعٍ فقيرٍ في إمارتِها.

– هاي.. كيف الشَّباب؟

وكانَ غَيث يقفُ قربَ خَيمتِه.. يتأمَّلُها تقترب.. فدنا هو أيضًا نحوَها، وقال:

– ما هذا.. إيميه جَبُّور في دِيارِنا؟!

– صَحيح. إيميه جَبُّور بقامَتِها وسَلامتِها.. أهيَ مُفاجأة سارَّة؟ رَدَّتْ عليه.

– سارَّةٌ جدًّا. ولكن ما سبَبُ هذه الزِّيارَة الرّائعَة؟

– لا سببَ مباشرًا غيرَ أنِّي اشتقتُ إليك.

وعانَقَتهُ بحرَارة وطبَعَتْ قبلةً سريعةً على خدِّه. وقد تعمَّدَتْ أن تجعلَهُ يَشعُرُ بأنَّه سُلطانٌ بينَ الشَّبَابِ رُفقائِه.

– شباب.. إيميه جبّور خَطيبَتي. بعضُكم لا يَعرفُها. قالَ غَيث للشَّباب.

فهتفَ هذا البَعض:

– تشَرَّفنا بإيميه.. أهلاً وسَهلاً بكِ في مُعَسكر الجُنديَّة.

وللمرَّةِ الأولى شَعرَ غيث نحوَ إيميه بانتفاضِ الرُّجولةِ فيه حتى الشَّراهَة. لم تكن فاتنةً مُثيرَةً خُرَافيَّة فقط.. ولكنَّهُ، ولا يدري كيف! رآها تجربةً مُرَّةً لناسِكٍ مُزمِنٍ آثرَ التَلَصُّصيَّةَ على الوصَالِ الكامِل. والرِّياضةُ عُمومًا تُلهي الغريزةَ وتُشغِلُها لوَقتٍ ما.. إلاّ أنَّ حُضورَ إيميه السِّحريَّ بينَ خِيَامِ العُزُوبيَّةِ هذه، جَعلَ رجولتَهُ المتَذَبذبةَ بينَ هوَسِ الثَّروَةِ والرِّياضَة والمِزاجِ التَلَصُّصِيِّ الغامضِ فيه.. تَستَفِزُ كأنَّها سَمِعَتْ صَفَّارةَ الإنذار المبكِّر. سَألها:

– حتمًا لن تَعودِي اللَّيلة؟! وهو غيرُ مقتَنعٍ بَعد ببَقاءِ يَمَامتِهِ الجَميلة في مُخَيَّمٍ لدَزِّينتَينِ منَ الصيَّادين. وأذهلَتهُ بردِّها:

– لا.. سأبقى قربَكَ حتى نهايةِ المُخَيَّم.

قالتِ المسكينةُ وهي لا تعي أيَّ انفجارٍ حدَثَ في ذاتِ غيث. وَجلسَتْ على جذعٍ خشبيٍّ قربَه وتحادَثا بعضَ الوَقت.. ثمَّ شَمَّرَت عن ساعدَيها حتى المِرْفَقَين وقالت:

– سأعِدُّ أنا لكم العِشَاء.

– ألم تُحضِري معَكِ أغراضَك؟ نحنُ في البَريَّة. سَألَها.

– غدًا ستأتي ابنَةُ عَمَّتي وتجلبُ لي معها ما أحتاجُه. رَدَّتْ عليه.

ثمَّ راحت إيميه تعِدُّ لشَبابِ الفريق من حواضر ما كانَ لديهم من زاد.. وما قد اشتَرَوهُ من دَكاكين البلدَةِ القريبَة. حَلَّ الظّلامُ.. وَحانَ موعدُ العِشاء وجلسَ الجميع يتناولون الطّعام.. ثمَّ شرعَ البعضُ في الغناءِ على تقسيماتِ الغايتارمان الذي كانَ معهم. ووُجوهُهم تتلوَّنُ بشُعاعاتِ النَّارِ المُرتعشَةِ في وسَطِ الدّائرَة.. كأنَّها الشّمسُ وهمُ الكواكبُ يتَهَادَونَ من حولِها. غنُّوا أغانيَ متنوِّعَة. والتهَبَ الحماسُ فيهم فنَهَضوا يَرقُصُون. وأمَّا إيميه فكانت جالسةً بقربِ حَبيبِها غَيث يشربان الشّاي. كانت تضَعُ رأسَها على كتِفِه.. أو تطعِمُه قطعةً من اللَّحْم بيَدِها.. أو يشربان كلاًّ من كوبِ الآخر. ثمَّ اقتربَ واحدُهم وأمسكَ بيَدِ إيميه ودعاها إلى رَقصَة، فنهَضَت بحماسة. وشَرَعتْ تغزلُ بينَ الشَّبَاب! ثمَّ عادَ هذا الشَّاب بعدَ دقائِق إلى غَيث وقالَ له:

– ألا زلتَ قابعًا في مَكانِك؟!

وشدَّهُ بيَدِهِ فقام. وتحلَّقَ الجميعُ حولَ غَيث وإيميه. حفلة توديع العُزوبيَّة.. كأنَّها! وكانت إيميه سعيدةً جدًّا. والأخطبوطُ الذي سيَخطفُ غَيث من شواطئِها الوالِهَة بات على قابِ قوسَين أو أدنى!! وعَبَرَ ثُلثا اللّيل والشَّبابُ بينَ السَّمَرِ والمرَحِ والغناء وروايةِ الطَّرَائفِ والتَحدُّثِ بالتَّحضيراتِ للمَوسم. شعَرَتْ إيميه بيَدِ النُّعاس تطبِقُ جفنَيها، ورأسُها على كتِفِ غَيث مُلتحفَةً بالإحرام. وأسَرَتْهُ رائِحَةُ شَعرِها فغاصَ فمُهُ وأنفُهُ فيه، وأغمضَ عَينَيهِ حتى النَّشوَة. قال لها:

– أذهبي ونامي يا إيميه.

ثمَّ أمسكَ بها ورافقَها إلى خَيمتِه.. كأنَّهما عروسان في ليلتِهما الأولى. والحقيقة أنَّها اللّيلة التَّحضيريَّة "للأولى"! ساعَدَها على التمَدُّدِ وغطَّاها وَجَلسَ قبالتَها يتأمَّلُها ويداعبُ بشرَتَها.. وطبعَ أيضًا قبلةً على خدِّها وَشَفَتَيها. ثمَّ تركَها وخرجَ يُكمِلُ سهرتَه معَ

الرِّفقة. وهكذا عبرَتْ اللَّيلةُ الأولى بسَلام. في اليَومِ التّالي جلسَت إيميه تشاهدُ التّدريبات تحتَ الشَّجَرة، تشرَبُ القهوَةَ وتتناولُ البزورات الصَّغيرَة التي تحبُّها. وكانت تقدِّمُ لهم العَصيرَ الباردَ والمَشروبَ الغازيَّ بينَ الفينةِ والفينة. وأمسيَةُ اللّيلةِ التّالية كانت كسَابقتِها.. ولكنَّ إيميه لم تكن مُجهَدَةً هذه المَرَّة! ولكنَّها.. بقيَتْ معَ غَيث في "خَيْمَةِ العِشق والغَرَامِ" حتى الصَّباح يَقذفُهُما مَدُّ الحُبِّ ويجذبُهُما تيَّارُ البَوْحِ وتبتلِعُهُما دوَّامةُ المُداعبات. وانكشَفَ الجَسَدان وتوَاجَها بطريقةٍ.. وتَحاوَرَا.. غيرَ مُدركَينِ أنَّ اللُّغةَ التي يَلهوانِ بها ستَخُطُّ لهما "إعلانَ فَرَمانِ" الحَيَاةِ الثّالثة المُنبَثقة منهما. فحرَارةُ الشَّوْق وجُموحُ شيطانِ غَيث وضعفُ إيميه المُخيف جَعَلَ الإثمارَ حَتميًّا. في مُراهَقتِه الأولى، كانَ غَيث يُطاردُ التُركيَّة الجَذَّابَة روجين آتشي، ولسَنوات، حتى الاثمار! وأمّا هنا فإيميه طارَدَتْهُ، وفي لحظَةِ ضعفٍ وسَذاجَةٍ منها، جَعلته يَغرسُ في أحشائِها حياةً جَديدَة. مُفارقةٌ غريبَة والنَّتيجَة واحدَة! والذي يقولُ أنَّ سياجاتِ المرأة أقوى من سياجاتِ الرَّجُل مُخطِئ.. فعواطفُ المرأةِ اللاّهبَة كفيلةٌ بتذويبِ وتقطيعِ مَرَاسي النَّجَاةِ كلِّها في لحظةٍ واحدةٍ متهَوِّرَة.. مُتمَرِّدة! هذه اللَّيلةُ ستكونُ ليلةً تاريخيَّةً مفصليَّة في حَيَاةِ إيميه، إنَّها "الزِّناد" أو هي النَّافذَة إلى سَنَواتِ المَجْمَرَةِ الطّويلةِ التي راحَتْ تضطرمُ في رُوحِها، لترسُمَ دقائقَ لوحَةِ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥ الدَّاميَة. إيميه تُحِبّ.. وحبُّها منَ النَّوْعِ الوَفِيّ كما غالبيَّةِ النِّسَاء. ولكنَّ حُبَّ غَيث منَ النَّوْعِ الواقعِيِّ جدًّا.. حتى يكاد يشابهُ حالةَ اللاَّحُبّ، أحيانًا.. حتى ولو كانت إيميه هي التي حكَّتْ ذِهنيَّتَه بمغناطيس فكرَةِ الزَّوَاج فانجَذبَ إليها. ولكنَّ الطّموحَ إلى الثَّرْوَةِ عندَه قادرٌ على إسقاطِ الحِسَاباتِ كلِّها في مُعادلاتِ الوُصوليَّةِ المَرَضيَّة. كأنَّ لسَان حالِهِ، ربَّما، كما قال عُمَر بن أبي رَبيعَة في أيَّامِه: "سلامٌ عليها.. ما أحبَّتْ سَلامَنا. وإن "خَيَّبَتْنا".. فالسَّلامُ على أخرَى"! وفي اللُّغةِ العاميَّةِ الشَّارعيَّةِ يُقال: "مِنّو وتْفوْهْ عليه". وكاريزما إيميه وثقافتُها وتاريخُها سيُعَرِّي كبرياءَها إزاءَ انكِفاءِ غَيث وإهمالِهِ لهذه الحِليَةِ الثَّمينةِ التي تخبِّئُها في عَميق وجدانِها المُرهف من نَحوه. لم يَنتبهْ هو ولا هي أنَّ أحشاءَها باتت مَسكونةً بثمرَةِ هذا الاشتعال الذي أحرقَهُما تحتَ "شادرِ الغَرَام" في تلكَ اللَّيلةِ العابثة.. والشَّبيبَةُ إمّا نائمونَ أو أنصافُ نائمِين في شَوَادرِهِم بعدَ يَومِهِم الرِّياضيِّ الطّويل. ثمَّ وثَبَ الزَّمَنُ وثبَاتِهِ الغادِرَة.. أيّامًا ولياليَ.. دقائقَ وثوانيَ.. قبل أن تطفوَ تلكَ الحَقيقةُ الموجعَةُ كطَعنةٍ في

جَسَدِ الحُبِّ الأعرَج.. أو الحُبِّ المُنفَصِم.. تمامًا كحالةِ الطّائِرَةِ السَّابحَةِ في السَّماء يَحملُها مُحَرِّكٌ واحِد.. وَالمُحرِّكُ الثّاني الشَّريك صَامِت!

إنتهى المُخيَّمُ التَّدريبيُّ للفريق، وأزِفَ موعدُ المَعرض الذي أقامته الجامعة في الكَسليك لمواهبِ الطلاّب. وعرَضَتْ إيميه مائيَّاتِها الرَّائِعَة في أحَدِ أجنِحَةِ المَعرض الكبير. سيِّدَةٌ قريبَةٌ لإيميه جبُّور.. آنجيلا كينيث.. لبنانيَّة أميركيَّة تعيش في ولايةِ كارولاينا الجنوبيَّة منذ إحدى عشرة سنة، كانَت حاضرَةً في افتتاحيَّةِ المعرض الحافلَة بالوجوه والمَقاماتِ التَّربَوِيَّة وَالصِّحافة، فاقتربَتْ من إيميه وعانَقَتْها.. وحادَثَتها بالعربَيَّةِ المَشوبةِ بالمُفرداتِ الإنكليزيَّة:

– أنتِ موهوبَة يا إيميه. سآخذُ منكِ أربعَ لوحاتٍ، أحضِرُها معي إلى أميركا في أيلول.

واختارَتْ آنجيلا لوحاتِها.. ودَفعَتْ ثمَنَها.. وَرَاحَتْ تجولُ في المَعرض.

سألَ غَيث إيميه:

– من هي هذِه السيِّدَة؟ فأجابت إيميه في صدقِ عَفويَّتِها:

– إنّها قريبَة لأمِّي.. أختُ زوج خالتي. تزوَّجَتْ من مهندس أميركيّ ثمَّ طلَّقَته.. وهيَ ثريَّة تملكُ شَركةَ عقاراتٍ كبيرَة في كارولاينا. ولا تدري المسكينةُ إيميه أنَّ الشَّيطانَ يجدُ له في كلِّ فاصلةٍ وُجوديَّةٍ سِلاحًا ووَسيلة! وعندَما سمِعَ غَيث أنّ آنجيلا ثريَّة أميركيَّة مُطلَّقة ومالكة لشَركةٍ عقاريَّة كبيرَة.. إنَّها الحُلمُ في جَسَدِ الحَقيقَة!! ولم يأبَهْ لفارق العُمر بَينَهما.. هي في بَحر ثلاثينيَّاتِها.. وهو في العِشرينِيَّات! إنبثاقُ آنجيلا المُفاجئ هذا قلبَ لإيميه جَبُّور ظَهْرَ المِجَنّ. كأنَّه لعنَةٌ.. أو رَصاصَةٌ طائشَة في رأسِ إنسانٍ يتنشَّقَ الهَواءَ العليل على الشُرُفة! تفترقُ ظروفُ الحَيَاةِ وتتقاطَعُ المَساراتُ في عبَثيَّةٍ غيرِ مَعقولةٍ أحيانًا.. وترسمُ مصائرَ البشَر وحَبَكاتِ قصَصِهِم في دراماتٍ شَكسبيريَّةٍ مَمسُوخَة. "كَنسَلَ" غَيث حِكايَةَ إيميه وفصولَها الجَميلة من دِماغِهِ.. وسابين وفضُوحيَّاتِها.. وغيرَهنَّ منَ العابثات.. وشرَعَ يَطبخُ طبخَةً تمتزجُ فيها النَّكهَةُ اللُّبنانيَّةُ بالأميركيَّة. لقدِ استَحضرَ مكانَ إقامتِها في لبنان ورقمَ هاتفِها من كَفِّ قارئَةِ دَهائِهِ،

وأقدَمَ على الاتِّصالِ بها وحَادثَها، ومارسَ معها فنونَ كلامِهِ في تَشكيلةٍ من زَخارفِ طموحاتِه. فأتى الصَّيفُ على نهايتِهِ وقدِ اقتنَعَتْ آنجيلا كينيث بغَيث ودِينامِيَّةِ أفكارِهِ وتوقُّدِ فِطرَتِه التِجاريَّة. ولكنَّها قبلَتْ به بشُروطِها هي.. ووقَّعَ لها على بَيَاضِ إملاآتِها القلِقَة وبُنودِ دَفترِ شُرُوطِ حَذَرِها، غيرَ سائلٍ عن شَيْء. ورتَّبَ معها كلَّ شَيْءٍ في الخَفيَّة، وسارعَ في دَفعِ القاربِ إلى الاقلاع، ليُرتِّبَ الأمورَ كلَّها هناكَ بَعيدًا في أميركا، فيَختَفِيَ من فضاءِ المعارفِ والاصدقاء كأنّه سِحْرٌ عَبْقَريّ.. في لعبَةِ هُرُوبٍ ماكرٍ غامض لا يدري أحدٌ ما هي دَواعيه ولا وُجهَة مقاصدِه.

ولكن.. وعندَما رسَمَ الصَّيفُ خَوَاتيمَه.. بدأت إيميه تشعرُ بتغييراتٍ مُريبَةٍ في جَسَدِها. وها هو الطّبيبُ يؤكِّدُ لها الحَبَل! وعندَما حَدَّثتْ غَيث بالحَقيقة جرَحَتْها ارتباكاتُ ملامِحِه وعرَقُ جبينِه. قالَ لها كاذبًا مُرائيًا:

– دَعينا معًا نفكِّرُ يا حَبيبَتي.. لنَجدَ طريقةً لمواجَهةِ هذه الإشكاليَّة.

ونامَتْ إيميه على حَريرِ الاطمِئنانِ الخادِع.

وعندَما راحَتْ تحاولُ الاتِّصالَ به بعدَ لقائِهما الأخير هذا.. كانت كأنَّها تبحَثُ عن شَبَح! لقدِ اختَفَى.. تبَخَّرَ.. لا أحَدَ يعرفُ عنهُ شيئًا.. وانتَهى بها المَطافُ إلى حائطٍ مَسدود.. وجُنونٍ مَشْهود! وهكذا باتَ في حِسَابِ غَيث الرَّاسي.. بَل في رَقَبَتِهِ مأساتان وجَريمَتانِ: التُّركيَّةُ الفاتنة روجين آتشي، والشَّقراءُ ذاتُ العَيْنَين العَسَليَّتَين إيميه جَبُّور. الأولى أرضى بها نَزَواتِ مُرَاهقتِهِ العابثة، والثّانيَة علَّقَها على خَشَبَةِ تَوَحُّشاتِ وُصوليَّتِهِ المارقَة. ولكنَّ الحَيَاةَ مُستمرَّة.. وهناكَ بعدُ فصُولٌ تُخفي الكثيرَ منَ الأسرار.. والكثيراتِ من طرائِقِها المُدهِشَة.

*****